رواية

غونزالو م. تافاريس

Telegram:@mbooks90

فتاةٌ تائهة في القرن العشرين

ترجمة

محمد صبري عبد الفتاح

مراجعة وتقديم

عبدالهادي سعدون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتاة تائهة في القرن العشرين

غونزالو م. تافاريس

ترجمة: محمد صبري عبد الفتاح

مراجعة وتقديم: عبدالهادي سعدون

عنوان الكتاب باللغة الأصلية:

Uma menina está perdida no seu século à procura do pai

By Gonçalo M. Tavares

الطبعة الأولى: أبريل ـ نيسان، 2023 (500 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al _ Rafidain 2022

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+/9647811005860+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN 978-9922-691-20-8

مقدمة

د. عبد الهادي سعدون

هنا رواية مهمة أخرى من أعمال الكاتب البرتغالي غونزالو م. تافاريس، وهو الروائي الذي تم التعريف به في عالمنا العربي بشكل متأخر، على الرغم من ان كتبه مترجمة للغات العالم أجمع، والكثير من النقاد يشيرون له كونه خليفة الروائي العظيم جوسيه ساراماغو، وساراماغو نفسه تنبأ بذلك ذات يوم. والرواية التي تترجم اليوم على يد مترجم شاب مقتدر جداً هو محمد صبري، تجيء تتويجاً لجهد الروائي على مدى سنين طوال، وهي من أواخر نتاجاته الأدبية الروائية بعد عمله الطويل (الحي) المتشكل من روايات قصيرة، وايضاً عمله القصصي (حكايات مزيفة) الذي ترجمناه مؤخراً وصدر عن دار الرافدين وعمله الحكائي غير المصنف (الشيوخ يرغبون بالعيش أيضاً) الصادر عن دار الهجان. رواية (فتاة تائهة في القرن العشرين) والتي تترجم من الإسبانية هنا، في نصها البرتغالي لها تكملة هي (فتاة تائهة في القرن العشرين وتبحث عن أبيها)، وكل الرواية تدور حول تلك البنت الصغيرة الصموت الغريبة في بحثها عن آثار أبيها في أزمنة الحروب والمتاهات البشرية المغرضة. الشخوص الدالة فيها تحاول قد الأمكان تبيان آثار النفس البشرية في أزمنة القسوة والدمار والحروب المهلكة. تقريباً كل تلك الشخصيات ـ سواء تعاطفنا معها أم لا ـ سنجد فيها بضعة منا متناثرة هنا وهناك. الأرواح البشرية متشابهة في مرحها وفي قسوتها. هذا الجهد الروائي سيكون عيناً مضيئة للإشارة إلى أخطائنا المريعة في أزمنة ليست بعيدة عنا، بل تنتمي لنا وننتمي لها، ولم يم عليها الكثير، نعني به القرن العشرين المنصرم.

Telegram:@mbooks90

كنت قد التقيت بالروائي غونزالو تافاريس في معرض كتاب مدينة صوريا الإسبانية في شهر آب الماضي، واللقاء غريب لأسباب عديدة، منها أننا لم نخرج من الكورونا وأزمة الجائحة العالمية بعد رغم مرور أشهر عديدة. ومن ثم أن هذا المعرض يعد الأول في إسبانيا والذي يقام بعد إلغاء وتأجيل أغلب معارض الكتب ليس في إسبانيا وأوروبا فقط بل في دول العالم أجمع. من هنا يأتي هذا المعرض كاستذكار للأثر الإنساني وعلاقة الجمهور المباشرة مع الكتاب والكُتّاب والتي نفتقد لها هذه الأيام. والشيء الآخر أن تكون البرتغال ضيفة شرف المعرض وتواجد أشهر روائيي البرتغال الأحياء من ضمن ضيوفها ألا هو غونزالو تافاريس، وهذا بحد ذاته يعد كسباً لمتابعيه وقرائه. وقد وافق الروائي على الحضور رغم تخوف أغلب الكتاب الآخرين من السفر وللرعب المسيطر على العالم من التنقل والتواجد في بلدان متأثرة بالجائحة أكثر من غيرها كما عليه في بلد مثل إسبانيا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا كانت فرصة مهمة أن التقينا غونزالو تافاريس، الروائي الأهم في أوربا والبرتغال، ومناسبة للاستماع لآرائه في الكتابة والجائحة والرواية والبرتغال والهموم الإنسانية. على الرغم من أن روايات عديدة قد ترجمت إلى العربية، ولكن غونزالو تافاريس مازال مجهولاً لدى القارئ العربي، بل وأجزم أيضاً لدى كتاب الرواية العرب الذين لم يتعرفوا على الرواية البرتغالية إلا من خلال الكبير وصاحب نوبل جوزيه ساراماغو. وساراماغو نفسه الذي قال كلمته الشهيرة عن تافاريس في مناسبة الاحتفاء بالأدب البرتغالي الجديد:» أؤكد لكم ان تارفاريس سيحصل في يوم من الأيام على جائزة نوبل للآداب، ولكن المؤسف أنني لن أكون حياً كي أصافحه وأهنئه بالمناسبة». لقد رحل ساراماغو عن عالمنا، والآن ننتظر أن نرى اسمه متوجاً الجائزة النوبلية عن استحقاق. ولكن حتى ذلك الحين، لقد تركت رواياته العديدة وماتزال الأثر الأكبر على عمق والكتابة في النفس البشرية وشروع عوالمها في التأثير والتغيير في طبيعتنا وذائقتنا ورؤيتنا عن العالم سواء بصورة متفائلة أو متشائمة. كل هذا جعل نقاد أوربا والعالم يعدونه من ضمن أفضل عشرة روائيين في الألفية الثالثة.

وغونزالو تافاريس لمن لا يعرفه بعد من القراء العرب روائي ومسرحي وشاعر ولد عام 1970 في آنغولا من أبوين برتغاليين، لينتقل وعائلته إلى شمال البرتغال في مدينة آفيرو ليمضي بها طفولته وشبابه حتى تخرجه من جامعتها، وبعدها بفترة طويلة ينتقل ليعمل استاذاً في جامعة لشبونة. نشر أول كتبه وهو كتاب شعري بعنوان (كتاب الرقص) عام 2001. ثم ينشر سلسلة من الكتب تحت نفس العنوان وهو (دفاتر غوزنالو تافاريس)، كتب لا يمكن تصنيف جنسها الأدبي إلا كونها أدباً خالصاً ومعاصراً وبتركيبة مجددة وصعبة. ثم يتجه بعدها لإصدار سلسلة رواياته القصيرة التي تتناول شخصيات روائية عالمية معروفة كلها ضمن عنوان رئيسي هو (الحي) والتي يبدأها بـ (السيد فاليري) 2002 تليها (السيد هنري) 2003 وكل سنة مع رواية جديدة بهذه العناوين الموحية: السيد بريخت، السيد كراوس، السيد كالفينو، السيد والسر، السيد بريتون، السيد أليوت وغيرها. وفي هذه الروايات المجموعة إنما لا يضع حداً فاصلاً ما بين الرواية ومثلها الروائي المعروف كشخصية يبني عليها كل همومه وأراءه وتنقلاته الحكائية المغرية والمؤثرة. بعدها ينشر روايته المعروفة (أورشليم 2004) عن الألم والخراب والدمار البشري في أزمنة الحروب أو السلم والتي حصل عنها جائزة الدولة للآداب، وتليها (حكايات مزيفة 2008)، وحتى هذه الرواية المترجمة هنا والتي تعود إلى عام 2018 بعنوان مطول وموحي هو: فتاة تائهة في القرن العشرين، ثم كتاب يوميات الوباء (2020) عن جائحة كوبيد 19.

رغم خزينه الهائل في الكتابة والنشر منذ عام 2002 وهو العام الذي بدأ فيه النشر، إلا أنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متأن جداً في مسألة النشر، ويقول إنه يكتب أضعاف ما ينشر، بل أنه لو جمع كل ما كتبه لفاق نتاج أغلب نتاج معاصريه مجموعين. ثم يشرح رؤيته عن الكتابة والنشر قائلاً: « الكتابة والنشر كلمتان مختلفتان تماماً، وأنها يجب أن تكون لدى جميع الكتاب وليس لي وحدي. أنا شخصياً ولا أخجل من قول ذلك، احتاج لوقت طويل من أجل الكتابة وإعادة الكتابة لمرات وإتمام كتاب ومشروع كتابي معين قبل أن أدفعه للنشر. على القارئ أن يتصور الوقت الذي أمضيه في التمعن بها ومراجعتها ومن ثم أن أجد ضرورة معينة تقنعني بجدوى نشرها. النشر يأتي في نهاية تأملاتي الكتابية حتى انني لا أتصور أن مهنة الكاتب هو النظر في فرصة النشر من عدمه. أكاد أجزم أن ما بين النشر وبيني شخصياً، لا وجود لعلاقة عميقة حتى تتضح الأمور بشكل سافر. وإن لم تظهر، فذلك لا يعنيني بالمرة، وأقولها بصدق».

لعله كتاباته الممجدة للكتاب المهمين في العالم، وأثرهم عليه هو ما يجعله يمارس النقد في معضلة الكتابة نفسها، يخبرني تافاريس مرة أخرى: «أنا اكتب، بعدها أنسى الكتاب، ثم فيما بعد وقت طويل أعود له وإذا ما وجدته نافعاً على الأقل بالنسبة لي وأجدني راضياً عنه، عند ذلك وحسب أقوم بنشره. لا أجدني من جملة الكتاب المفرطين في النشر. في الكتابة نعم أكتب كل يوم، بل لا يمر يومي دون تدوين وتفكير في موضوع معين. أكتب كل اليوم واحياناً لساعات طويلة دون توقف. لكنني انظر للنشر من ناحية أخرى وهي علاقة كتابي وخروجه مني ليكون بوضع معين مع القارئ، عدا ذلك لا أجد منفعة من نشر الكتاب للنشر فحسب، ولتقول إنك متواجد في السوق الزاخر بآلاف بل ملايين الإصدارات في العالم أجمع». ثم يستدرك قائلاً: «لو أن لكل كاتب حس نقدي يستخدمه مع كتاباته أولاً قبل كتابات الآخرين لأحتاج لبرميل قمامة كمرافق له ومجاور لطاولة عمله، وهذا من أول شروط العمل الكتابي، في الرواية التي نكتب أو في أي عمل إبداعي آخر».

لكنه مع ذلك يقول إنه ككاتب قد نجده يخالف نفسه في كل مرة. مثلاً مع فترة الحجر مع وباء الكورونا، فقد حصل ما لم يحصل معه إطلاقاً. ليس الحجر نفسه، فهو مثل كتاب عديدين يمضون أغلب الأوقات في مكاتبهم أو غرف عملهم ولا يخرجون إلا لماماً. فهو مع جائحة الكورونا استغل كل الوقت في الكتابة، بل أن صديقاً سينمائياً قد طلب منه أن يسجله وهو يقوم بعملية الكتابة اليومية وذلك بتثبيت كاميرا في إحدى زوايا الغرفة دون أن تعرقل عملية الكتابة، ومن التسجيلات نرى تافاريس وهو يكاد يعمل أغلب ساعات اليوم كتابة وتدويناً وقراءة. ومنها خرج بيوميات عن جائحة الكورونا أجبرته وللمرة الأولى في حياته أن ينشر بالتتابع أسبوعيا في أغلب صحف العالم عن آرائه وعالمه في أزمنة الوباء:»أنا ككاتب أحدد ما أقوم به وأحياناً أتجاوزه كما فعلت بنشر يوميات جائحة الكورونا على العكس من آرائي عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التأني، وهذا ما عليكم معرفته، إنني أناقض نفسي في أغلب المرات، وفي كل ما أقوله وقلته سابقاً. ربما العيش تحت ضغط التواجد ومجابهة الموت يومياً هو ما يجعلنا نسارع بالقول إننا ها هنا». حتى يقول في النهاية:» أتفق تماماً مع والتر بنيامين عندما قال إننا نحتاج إلى يد يسرى أخرى لكتابة ما لا نقدر عليه كتابة باليد الأخرى. وربما هذا ما أقوم به في أغلب النتاجات الأخيرة فعلاً».

عندما اخبرته أن بعض أعماله، القليل منها، مترجم إلى العربية، فرح جداً رغم أنه لم ير أي نسخة منها حتى اليوم. وقال بشكل صادق إنه يتمنى أن يستمر القارئ العربي بقراءته خاصة مع أعماله الجديدة. وعندما سألته رأيه كختام لكلماتنا هنا في مدينة إسبانية غريبة لم نفكر بها إطلاقاً كمسرح للقاء، قال لي: «لطالما أن كل أقوالي أشارت للكتابة والعملية الإبداعية فلا بد لي أن أكرر ما أقوله لأغلب من يتابعني من قراء ونقاد وهو أن عملية الكتابة هي عملية إيقاظ للقارئ، عملية خض كبرى تساهم بوضعه على محك الواقع والحياة، وليست مدعاة لاسترخائه وكأنها سلعة مقدر لها أن تساهم بهذا الدور. لو أنني ساهمت بقدر بها فهذا شيء خارق ومريح لي كإنسان وكروائي».

(مدريد 2022)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

الوجه

1

الوجه

انه لمن المستحيل تجاهل النظر إلى هذا الوجه. هذا الوجه المميز المستدير، وجه ذا عينان واسعتان وخدان سمينان. انها فتاة، بل فتى؟ يصعب على ماريوش تمييز الأمر. للوهلة الأولى رءاها فتاة بلا شك، كم تبلغ من العمر؟ خمسة عشر عاما أم ستة عشر عاما؟ لكن بعد قليل من التمعن يمكنه القول بأنه فتى، لكن لا بل فتاة.

بيديها تحمل مجلد صغير. نسي ماريوش حالة العجلة التي كانت تعتريه فاقترب منها. تبسمت الفتاة ومن ثم وضعت دفتر الملاحظات بين يديه. كان ما بداخله مكتوبًا بواسطة آلة كاتبة:

ذكر البيانات الشخصية:

1. ذكر الاسم الاول.
2. ذكر الجنس.
3. ذكر الاسم كاملاً.
4. ذكر اسم الابوين والإخوة.
5. ذكر العنوان.
6. ذكر اسم المدرسة التي ترتاد.
7. ذكر العمر.
8. ذكر يوم وشهر الميلاد.
9. ذكر لون العينين.

ابتسم ماريوش. ثم سأل.

- ما اسمك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حنة.

- هل ولد انتِ أم فتاة.

- فتاة.

كانت تتحدث بسرعة لكن تمكن ماريوش من فهمها.

- ما اسمك بالكامل؟

- لا

- لا تريدين ذكره لي؟

لم تجب.

نظر الي الدفتر وتوقع كونه جزء من لافتة ما ولكن لم يلاحظ عليه اي علامة تدل على انه كان معلقاً قبلًا، شخص ما قد أعطاها إياه او قد اخذته هي بنفسها من مكان ما. لاحظ ماريوش في مكان ما في أعلى الدفتر ملاحظة مكتوبة بخط صغير يكاد لا يرى، تعليم ذوي الهمم من أصحاب الإعاقة الذهنية.

ثم واصل ماريوش:

- ما اسم والديك؟

- لا

- أين تقطنين؟

- لا

- أي مدرسة ترتادين؟

- لا

لم تتوقف عن التبسم لدرجة أن لاتها كانت من اللطافة بمكان ليشعر بها نعمات.

- ما عمرك؟

- اربعة عشر عاماً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- في اي يوم وشهر ولدتي؟

- الثاني عشر من اكتوبر.

عاود ماريوش النظر إلى الدفتر.

1. ذكر الاسم الاول.

2. ذكر الجنس.

3. ذكر الاسم كاملاً.

4. ذكر اسم الابوين والإخوة.

5. ذكر العنوان.

6. ذكر اسم المدرسة التي ترتاد.

7. ذكر العمر.

8. ذكر يوم وشهر الميلاد.

9. ذكر لون العينين.

لم يتبق الا السؤال التاسع، كان سؤلاً سخيفاً بالنسبة إليه لكنه سأل:

- ما هو لون عينيك وشعرك؟

- العينان: سمراوان، الشعر: كستنائي اللون.

كانت اجابتها صحيحة، كانت هذه هي الألوان التي يراها، مما لا شك فيه أنها حفظت هذه الإجابة.

نظر إليها ماريوش متبسما.

بعد برهة قالت:

- أبحث عن أبي.

- تبحثين عن أبيك؟

- نعم، ثم كررت حنّة، ابحث عن أبي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

البطاقات

تحمل حنّة صندوق صغير. سألها ماريوش عما إذا كان بإمكانه فتحه. فوافقت حنّة، واضعة إياه بين راحتيه. فتح ماريوش الصندوق.

يحتوي الصندوق على بطاقات. أعلى كل منها، يوجد حرف، ثم الملاحظة التالية: تعليم الأشخاص ذوي الإعاقة الذهنية.

ثم قالت حنّة:

- هذا لي. أعطيته.

- من أعطاه لك؟

- أعطيته ـ كررت حنّة.

تحتوي كل ورقة على موضوع ثم سلسلة من الخطوات أو الأنشطة أو الأسئلة. بدأ ماريوش في تمرير بعض البطاقات: «استكشاف الأشياء» ـ في هذا الحقل، تم عرض التمرين رقم 3 كما يلي: «إلقاء شيء ما ثم الامساك به»؛ العديد من البطاقات الأخرى، ثم تظهر بحرف كبير كلمة «النظافة الشخصية»، «6 ـ مسح الأنف، 7 ـ غسل اليدين، 8 ـ غسل الوجه»؛ «الصحة والسلامة»، «1 ـ تحديد الجزء الذي يؤلم من الجسم». فكر ماريوش في مدى صعوبة ذلك، ليس فقط بالنسبة لشخص ذا إعاقة ذهنية، ولكن لجميع البشر، بل لكل الكائنات الحية ـ «الإشارة إلى الجزء الذي يؤلم من الجسم». ففي تلك اللحظة، مثلا، كان بداخل ماريوش، ألم غير محسوس، شعور واضح بعدم الارتياح؛ هو ألم، لكن ليس هناك من موضع محدد له، لم يكن هناك من وصف تشريحي لهذا، وما يعرفه عن ذلك الموقع الغير ثابت، المتأرجح، يمكنه من القول بأنه مثل بندول الساعة، ألماً. بدلاً من أن يكون موجودا عند نقطة ما في جسم الكائن الحي، يتأرجح ويتردد، ويذهب من جانب إلى آخر، كما لو أنه عند فتح ماريوش ذراعيه، وتمديدهما كما في التمارين الرياضية، يتسع تلقائيًا الحيز الذي يمكن أن يتمدد فيه الألم، وفجأة تلك الصورة، هي صورة مكعب بالتأكيد، لكن لمن؟ ، إل بوسكو؟ لا أتذكر جيدا، لقد كانت صورة شيطان جالساً القرفصاء، يتبرز على صفحات كتاب؛ أي كتاب؟ لا يمكن معرفة ذلك أبداً؛ «2 ـ الذهاب إلى الحمام بمبادرة شخصية»، إنه قرارك، في الملاحظات، تتطور لتستخدم عضلاتك؛ «3 ـ التبول أو التبرز أحيانا في المبولة أو في قاعدة المرحاض إذا كان هناك» ـ يوجد هنا العديد من البطاقات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل منها ذات عنوان مختلف. سرعان ما أدرك ماريوش أن هذا البرنامج، إذا كان من الممكن أن يطلق عليه هذا الاسم، قد تم تقسيمه إلى مجالات: «الغذاء، النظافة، التنقل، الصحة والسلامة، المهارات الحركية العالمية والدقيقة، واللغة» ـ شخص ما قد تخلى عن فتاة معاقة في شارع مزدحم بالمدينة مع صندوق من البطاقات، العشرات والعشرات من البطاقات بها خطوات، وتمارين، وأهداف. لقد كان ماريوش مفتونا بكل شيء، بهذا التنظيم. إحدى البطاقات يُقرأ بها: «الهدف ب: السير في الشارع»، نعم، وهُنا كانت، حنّة وحدها في الشارع. الخطوة الأولى: «السير على الأرصفة». وكان هدف آخر هو ارتداء الملابس؛ ذكرت كلمة تستخدم كثيرا: التعاون. في الخطوة الأولى من هذا الهدف: «التعاون في ارتداء الملبس»، الخطوة الثالثة: «وضع الذراعين داخل الأكمام عند ارتداء الملابس؛ 10 ـ أغلاق السحابات، 11 ـ إزرار الأزرار. »

- هل يمكنك ربط الحذاء؟ ـ يسأل ماريوش.

وتبتسم حنّة، وتهز رأسها أي لا.

«الهدف: تنسيق الحركات الدقيقة.

1 ـ هز الأجراس الكبيرة والصغيرة.

2 ـ اخراج أشياء من صندوق. }...{

4 ـ تصفح الكتب.

5 ـ التخطيط بالقلم.»

سأل ماريوش: هل يمكنك كتابة اسمك؟

هزت حنّة رأسها ثانية؛ مجيبة بلا.

النقطة 11 كانت صعبة ـ هكذا اعتقد ماريوش ـ ولكن على الرغم من كل شيء،

«11 ـ فتح الأبواب ذات المقابض التي تتحرك لأسفل»

على الرغم من كل شيء، كانت تلك المقابض أسهل كثير من تلك القبضة الصعبة التي تحتاج تحريكها دائريًا وليس حركة اليد البسيطة من أعلى إلى أسفل؛ ولكن هنا ويبدو أن هذه الدورة منظمة تنظيما جيدا، حيث أنها تتطرق الى الأفعال الصعبة تصاعدياً بطريقة تدريجية؛

«12 ـ فتح أغطية الأواني»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان ذلك المستوى التالي من الصعوبة.

بذلك الحين يجلسون في مقهى، طلب لها زجاجة مياه، وقطعة معجنات.

- ماذا تريدين؟ ـ سألها.

- لم تجبه.

لم يتمكن من تركها في الشارع؛ كان عليه حل الأمر بسرعة، أولا الأكل ثم تولي الأمر، البحث عن المؤسسة التي فرت منها حنة، لن يكون صعبا، كان يود معرفة المزيد، ولكنها بالكاد تتحدث تقريباً. يستعرض ماريوش بطاقات البرنامج التأهيلي، ممسكاً بالأولى بالفعل ـ «إعطاء البيانات الشخصية» ـ لقد ذكرت ذلك في نفس المكان، نعم، هذا واحد. وفيما يلي، كان الهدف التالي هو: «عبر عن نفسك». وكان معلمو فتاة الـ«ترايسومي 21 (1) يريدون منها أن تعبر عن نفسها، لكنها كانت صامتة كلياً أمامه.

وإليك الخطوات اللازمة للدخول إلى المحادثة ـ في النهاية، ما كانوا يصبون اليه هو ان تعبر فقط، حسنا، ولكن أولا:

«1 ـ إطلاق الصيحات }...{ أصوات متباينة لأحزان مختلفة (الألم، الجوع، إلخ...)».

يا له من تدريب مفيد، فكر ماريوش.

«2 ـ التبسم أو التفوه بإشارة صوتية ردا على وجود شخص ما أو موقف لطيف.»

التأوه عند الشعور بالألم والتبسم عند الإعجاب بشيء ما، لكنها دائما ما تبتسم حنة، يا لها من فتاة لطيفة!

تالياً، في نهاية الملف تقريبا، الهدف: «استخدام المال في مواقف عملية: 1 ـ تمييز العملات المعدنية والورقية على أنها النقود».

سحب ماريوش عملتين من جيبه سائلاً إياها:

- أتعرفين ما هذا؟

اجابت بلا (مستمرة على ابتسامتها). يقرب منها ماريوش العملات المعدنية.

- هل تريدينها؟

تجيب بلا بهزة من رأسها، دون أن تنطق بشيء، لا ترفض بسبب الخوف بيد أن العملات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعدنية لا تستهويها.

في الطريق الى هدف آخر، كانت الخطوة رقم 6 هي: «التعرف على العلامات التي تشير إلى الطريقة الصحيحة لفك التغليف»، ثم الخطوة 7، في قفزة تطورية غريبة: «التعرف على العلامات التي تشير إلى الخطر»، خطوة أخيرة من هدف التعلم؛ ينظر ماريوش إليها، يبتسم؛ فهي بعيدة كل البعد عن ذلك، ولن تلاحظ أي خطر. هدف آخر:

«معرفة المكان والزمان».

شعر ماريوش بفضول كبير، فقد شعر بأن هذا البرنامج له أيضا، و«تسمية الموقع النسبي للأشياء (الأمام، الخلف، الأعلى، الأسفل)»، ثم، الخطوة التالية (في هذه الدورة، أول شيء، هو تحديد المكان، معرفة موقع الأشياء، ثم بعدئذ يأتي تحديد الوقت المناسب، ولكن من الممكن أن يكون الأمر على العكس من ذلك، كما تصور ماريوش)، في النقطة 7، وهو الهدف الذي بدا له وكأنه، من دون أن يعرف لماذا، يتسم بالقسوة بشكل خاص: «تحديد الساعة باعتبارها أداة لرؤية الوقت»؛ في بطاقة أخرى، هناك هدف آخر، الخطوة الأولى فيه هي: «التعرف على الاسم الأول مكتوب». أخذ ماريوش ورقة وكتب حنّة.

- هل هذا هو، حنّة؟ ـ سأل.

ولم تجب على ذلك.

ثم كتب ماريوش حنّة.

- هل هو كذلك، بدون همز؟ ومن الواضح أنها لم تميز حروف اسمها، أو على الأقل لم تميز الفرق بين الكلمتين.

قال ماريوش أن اسمها يكتب بدون هاء. حنّة.

حينئذ احضروا المعجنات، فأجهزت عليه، ممسكة بها بأصابعها العشر، بدأت أولا في القضم من منتصف الكعكة، بدأت بالوسط، ظلت المعجنة مثل نوع من القشر، كهيكل عظمي حلو.

تؤكل أيضا، تمتم ماريوش مشيراً الى الهيكل الخارجي المتروك، بينما بيده الأخرى لم يتوقف عن تصفح الملف غير العادي جيد التنظيم ـ «هدف: اكتساب مفاهيم الكم»، قرأ:

«1. تمييز واحد من العدة، 2. تمييز القليل من الكثير».

(كان الهدف الأول مضحكاً بسبب تفاهته، ولكن نعم، أدرك، وأصبح جلياً له، أنه من المهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التمييز الشيء الواحد من العديد، وأيضا تمييز الأشياء القليلة من بين الأشياء الكثيرة؛ ثم كانت الخطوة رقم 3 أوضح).

«3 ـ تمييز الواحد عن الاثنين.

4 ـ العد ميكانيكيا.»

ومرة أخرى تذكر تفاصيل تعلم مفهوم المكان أولا، ثم مفهوم الزمان، وتبادر إلى ذهنه أنه عندما ظهرت القطارات لأول مرة في انكلترا، كانت البلد كلها تضبط الساعات الزمنية مع ساعات المحطات، أمر هام بالنسبة للتجارة؛ وعلى نحو ما، فإن عملية النقل، التي هي نقلنا من مكان لآخر، قد فرضت وجود وقت مشترك؛ الجداول الزمنية، عزيزتي حنة.

«1 ـ الإشارة إلى الأجزاء الرئيسية في الجسم» عند تسميتها.

ثم كان من المهم أيضا «معرفة أقرب بيئة مادية واجتماعية»، وكانت إحدى خطوات هذا الهدف «تحديد الحيوانات المنزلية»، وعند النقطة التالية مباشرة، «تحديد الأطعمة الأكثر شيوعا».

ـ تحبين الكعك، قال ماريوش مشيراً الي الكعكة، ناطقاً الحروف ببطء جدا متوقفاً عند كل حرف.

ابتسمت حنة.

بدأ ماريوش في الشعور بالتعب، ولكن الشعور الأول كان وميضيًا عندما رأى رجلاً يقترب من الطاولة. لديه كاميرا وحقيبة ظهر ضخمة على ظهره. ثم سأل عما إذا كان بإمكانه الجلوس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

مصور حيوانات

أخرج عدة صور فوتوغرافية من حقيبة الظهر. كانت صوراً لحيوانات. على الرغم من أن الشيء الغريب هو أن كل حيوان كان دائما لديه ثلاث صور: واحدة من الأمام واثنان من الجانب.

- مثل السجناء.

- نعم، قال الرجل وضحك.

وكان اسمه جوزيف برمان وفي لحظة أعطاني بطاقة.

- مصور حيوانات.

- «جيد جدا»، قلت.

أعجبت حنّة كثيراً بالصور ـ إن الصور حقًا غير عادية. ثلاث صور دائماً لكل حيوان، مرقمة ـ الرقم الذي يميز كل حيوان ـ ثم ص. أ. (صورة أمامية)، يمين (الجانب الأيمن) ويسار (الجانب الأيسر) مكتوبان أيضًا على الفيلم في الصورة، على جانب واحد، حتى لا تختلط مع بصمة الوجه، دعنا نسميها ذلك، للحيوانات.

توجد صور لكلاب وقطط وخنازير، ولكن الأكثر إثارة للإعجاب كانت صور الخيول، حيث بدا بعضها يستحق فعلاً كلمة وجه لتمييزها، لأنها لم تكن تحوي مجرد ملامح حيوانية بسيطة؛ في الصور الامامية والجانبية لتلك الخيول، ما برز هو الألم، شعور حيوان قد وصل إلى أقصاه، يسير في طريق مسدود، ضائع، لا يعرف ماذا يفعل، لا يعرف كيف التعامل مع تلك الأيدي التي أجبرته بالتأكيد.

قلت لجوزيف، «تبدو تلك الحيوانات حزينة»، وابتسمت في وجه حنّة، مطمئنًا لها (لقد أخافتها صور تلك الخيول، من الواضح أنها لم تحب تلك الصور).

بدأ جوزيف في الشرح: «بعض الحيوانات لم تفهم ما أريده وكان أصحابها يضطرون في بعض الأحيان إلى إجبارهم، يجذبون رؤوسهم ويحولون أعناقهم من جانب إلى آخر... هل تعرف عدد الحيوانات التي صورتها؟» لن تصدق ذلك...

أكثر من سبعة آلاف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا عن الخيول؟

- أكثر من مائتين.

- «يبدون حزينين، لا سيما في الصورة الأمامية»، كررت.

شرح لي جوزيف لاحقًا أنه كان يعنى بكتابة تاريخ الحيوانات، تاريخ موازي يستند إلى الحيوانات وما حدث لها في كل مدينة، تقطنها أو تتفاعل معها وأحيانًا، بشكل غريب بما فيه الكفاية، توقعها للأحداث التاريخية.

- «حركة الحيوانات، وكم المعلومات التي تأتي من تلك التحركات، إنهم يتوقعون القصف. لم تدرك أي أذن بشرية حتى الآن اقتراب حدوث تفجير، الذي لا يزال في تلك اللحظة بعيدًا، بينما بدأت عشرات الأنواع من الحيوانات في البحث عن ملجأ. الجرذان، يا لها من مخلوقات مدهشة! لقد توقعوا قيام الحرب العالمية الثانية. يبدو أنه كان لديهم خريطة لمجاري مدينة لندن: كما لو كان لديهم مسارات مختلفة في رؤوسهم وكأنهم يعرفون بالفعل ما سيحدث. لقد فروا قبل القصف بوقت طويل». تمتم جوزيف.

- «وهل تعلمون عن غزو الخنفساء لأوروبا؟ ـ هل تضحك؟ ألا تصدق ذلك؟»

إنه ـ تابع جوزيف بيرمان ـ غزو عسكري حقيقي. وفقًا للباحثين في هذا الموضوع، من خلال مسار خنفساء البطاطس يمكننا متابعة وفهم جزء من المعارف السياسية والاقتصادية والعسكرية في القرنين التاسع عشر والعشرين. ألا تصدق ذلك؟ بدا جوزيف بيرمان متحمسًا. نعم، سألخص لكم الموضوع ـ ثم واصل: ـ ظهرت في عام 1850 تحديداً لأول مرة في كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية. رافقت الخنفساء جميع تحركات التنقيب عن الذهب وبالتالي انتشرت في جميع أنحاء كاليفورنيا. عن طريق القطارات وصلت إلى الشرق، إلى المحيط الأطلسي. حيث توجد البطاطس، توجد الخنفساء. في وقت لاحق، وصلت الخنفساء إلى أوروبا عن طريق السفن، وكانت هذه هي الوسيلة التي اختارتها ـ سفينة محددة تاريخيًا، بتاريخ محدد. وفقًا للمؤرخين، كما يقول جوزيف بيرمان، فإن الغزو الأول للخنفساء لأوروبا لم يسر على ما يرام. تغلب الألمان على الخنافس قبل نهاية القرن التاسع عشر. لا تظن أنها مهمة سهلة. أنثى الخنفساء تضع آلاف البيض في كل مرة، الآلاف! هل تعرف ماذا يعني هذا؟ ليس من السهل هزيمتهم. لكن الأمر كان ضرورياً: فهي تسبب الكثير من الخراب. قال جوزيف بيرمان. في عام 1917 كان هناك إنزال جديد للخنافس، هذه المرة في جنوب غرب فرنسا في بوردو. بسبب الحرب العالمية الأولى. جلبهم الجنود الأمريكيون. لذلك، كان هذا هو الهجوم الحقيقي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينما انغمس الرجال في الحرب والقتال، انتهزت الخنافس الفرصة للتكاثر والانتشار. يمكن القول إنه من الناحية العملية، هذا هو بالفعل ما حدث: إذا لم يتم استدعاء الرجال الأقوياء والشباب والأفضل تجهيزًا للمشاركة في أحداث الحرب العالمية الأولى المختلفة المتباينة، فمن المحتمل ألم تتمكن الخنفساء من دخول أوروبا. حسنًا، تحتل الخنفساء كل المواقع؛ حتى اليوم يتطلب نضالًا مستمرًا. سمحنا للأعداء الصغار بالدخول والآن لا يمكننا إخراجهم. قال جوزيف بيرمان، إذا كتبنا تاريخ الحيوانات، فسنرى أنه ليس موازيًا لتاريخ البشر، إنه يتقاطع معه، نعم. للوهلة الأولى يبدو أننا أثرنا فيهم أكثر مما أثروا فينا. لكنني لا أدري. لم أدرسهم بما فيه الكفاية.

- «هل هي ابنتك؟» ألقى جوزيف بالسؤال فجأة، والتفت إلى حنّة معيرها الانتباه في النهاية.

- «لا. لقد وجدتها تائهة في الشارع. سألت جميع المتاجر: لا أحد يعرف من هي. لم يروها هنا من قبل. إنها تبحث عن والدها. اسمها حنّة. هناك منزل يرحب بالأطفال من هذا القبيل، وسوف آخذها إلى هناك»، أجبت.

بدون أي تعليق، انحنى جوزيف على حقيبته وأخرج أرشيف صور آخر، فتحه، في مواجهتي، محاولًا، وإن كان خلسة، عدم السماح لحنّة بالنظر اليه.

- قال: «لا تخطئ فهمي... إنه مشروع آخر».

نظرت إلى الصور الثلاث الأولى أمامي. كانت بالضبط علي نفس النسق. ثلاث صور: واحدة من الأمام واثنتان من الجانب، مرقمة ومعها مؤشرات أخرى لم أستطع قراءتها في تلك اللحظة. يعتريها نفس التنسيق، لكن تلك الصور كانت لأشخاص. ليسوا بأشخاص عاديين. بعد قلب ثلاث أو أربع صفحات من الأرشيف سرعان ما أدركت أنها ليست صورًا لأشخاص عاديين، ولكن لمرضى، ومعاقين، وبعضهم من ذوي الإعاقة الجسدية، يلوح ذلك على وجوههم ـ في بعض الأحيان تلوح من صورة جانبية واحدة او اثنتان الإعاقة، الخطأ، الشيء العضوي الذي لم يكن في مكانه، ولكن هناك دائمًا شيء ما: تورم ضخم، حرق ينتقل من العين إلى الرقبة، وأشياء أسوأ ـ حتى أكثر وحشية ـ لا تستحق الوصف. أو، إذا لم يكن الأمر كذلك، فقد كانت نظرة تندد بنوع من الضعف العقلي، ونقص في فهم العالم، ومستوى عقلي أقل من الحد الأساسي الذي يسمح لنا بالتفكير في أن الشخص يمكنه الدفاع عن نفسه ـ كانت تلك العيون تكشف أن هؤلاء الأشخاص كانوا الأكثر هشاشة، هم من أولئك الذين لا يسببون الخوف، ولكن فقط الرحمة أو، في بعض الأحيان، في أكثر الحالات الجسدية ظاهريًا، النفور الغريزي.

- لماذا تريني ذلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يرد علي، لكن كان من السهل فهم ما يريد. بعد التلميح إلى أنه كان يدفع مقابل عمله، قام المصور المحترف جوزيف بيرمان، بلا شك، دون وعي، بتحسس الزر الموجود على الكاميرا بأصابع يده اليمنى. ومع ذلك، فقد تراجع بشكل غريزي. علاوة على ذلك، بدءاً من نقطة معينة، الأرشيف، الذي ظل يتصفحه قلقًا من أن تراه حنّة، صب كامل تركيزه على صور الأشخاص المصابين بمرض الترايسومي 21. في ذلك الأرشيف العشرات والعشرات من الوجوه؛ في المنتصف، الصور ذات المقطع الأمامي، على اليمين الصور الجانبية اليمنى، وعلى الجانب الآخر الصور الجانبية اليسرى، تلت العشرات والعشرات من الوجوه بعضها البعض، لكن كان هناك إحساسا غريبا هو أن تلك الصور دائما ما كانت تنقل نفس الشيء، لأنه، في الواقع، كانت الوجوه متطابقة تقريبًا ـ كانت الصور الجانبية إذن، متجانسة تمامًا، فقط في الصور الملتقطة من الأمام، ظهر اختلاف واحد أو آخر لعين، هو اختلاف صغير جداً-، واحدة فقط أو أكثر، تبرز مع النظارات.

- قال جوزيف، متابعًا نظراتي في الأرشيف: «لقد التقطت صوراً في بلغاريا وأمريكا وفي جميع أنحاء العالم. إنهم متماثلون، ينتمون إلى نفس المجتمع».

وفي الواقع، كانوا نفس الشيء. وجوه، مزيد من الوجوه، المبتسمة، ورضا بما أعطته لهم الحياة، قبوله كله، قبول بالتأكيد ما أعطاهم إياه هذا المصور، قبوله كله، والموافقة بالتأكيد على كل ما طلبه منهم ذلك المصور، والقبول، دون إدراك («التبسم أو اصدار الأصوات كرد فعل على وجود شخص أو موقف مبهج»)، هم غير قادرين على التمييز بين وجهي العالم. ربما يكونوا قادرين على التمييز بين الأطعمة الأكثر شيوعًا وقادرين على تحديد اقسام المنزل الرئيسية، وقادرين على فصل الأشياء ذات الأحجام المختلفة والألوان المختلفة ـ ولكن العديد منهم سيجدون نفسهم في موقف آخر، أيضًا، أمام موقف ضار آخر قد يعيشونه مستمتعين، مبتسمين، بنفس تلك الابتسامة المغرية والساذجة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

أين؟

- أين يمكننا البحث عن أبيك؟

- بيلين ـ أجابت حنّة.

- أيوجد والدك في برلين؟ هل هو من برلين؟

- بيلين، أجابت حنّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

الثورة ـ الوداع

1

اللافتة

في أحد الشوارع الجانبية الضيقة والتي كلما تعمقت فيها تزداد قتامة، إحدى الطرق الفرعية تجاه محطة السكة الحديد، عمدا الي التباطؤ، حيث أن حنّة، في شغف ثبتت عينيها، وبالتالي ساقيها، على حركات لرجل على ارتفاع عشرين متراً، تشبه المداعبة العبثية، المكررة، من مجنون وقع في حب عنصر محايد مثلها. أطاع ماريوش وتيرة حنّة البطيئة ـ قد أثار الأمر اهتمامه هو الآخر.

ثبت الرجل ملصقًا على الحائط، تلك الحركات التي بدت منذ لحظات قليلة مداعبات تبدو الآن بوضوح كإيماءات منطقية، ومفيدة، وذات هدف واضح. لم يكن مجنونًا، لقد كان شخصًا لا يريد إضاعة الوقت وكان لديه هدف.

حركة طفيفة من الرأس وابتسامة قصيرة كشفتا عن حسن نية الرجل ـ لم يكن يشعر بالتهديد ـ وكان ماريوش ممتنًا لذلك عن نفسه. على الرغم من أن الشارع كان عامًا بشكل واضح، إلا أنه شعر وكأنه ضيف مرحب به.

«لافتة؟» سأل ماريوش الرجل.

نعم.

حنّة، من المؤكد أنها مفتونة بالصورة فقط لأنها لم تكن قادرة على القراءة، وماريوش كان يراقب، في اندهاش، كل التفاصيل، صامتًا بشكل غريزي تقريبًا. اللافتة.

نظر الرجل إلى حنّة.

- «هل هي ابنتك؟»

- أجاب ماريوش، «لا».

- رحب الرجل بحنّة التي بادلته التحية: «مرحباً».

- «ما رأيك في الملصق؟» سأل الرجل ماريوش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجاب ماريوش بوجهه، متبسمًا، وبعد ذلك مباشرة هز كتفيه، ماذا أقول لك؟

«أذاهبون أنتم إلى المحطة؟»، سأل الرجل.

- نعم.

- انا ذاهب معكم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

فريد ستام، الثورة

كان اسم الرجل فريد ستام. جلس في مواجهتهم. كانوا في نفس القطار، وفي نفس الاتجاه. ما زال فريد لم يقل ما هي وجهته، لكنهم أيضاً لم يخبروه.

- قال فريد: «في الواقع، نحاول خلق بعض الارتباك»، شارحاً كما لو أن ماريوش قد سأله شيئًا.

قال إنهم خمسة إخوة، إخوة أشقاء، عائلة ستام.

«نحن في العالم لنقاطع. نصنع ملصقات ثم نلصقها على الجدران. نحن خمسة، لكننا منتشرين في كل أوروبا، كما لو كنا جيشا من خمسة. نحن لا نتوقف أبدًا، فمن لا يعرف عددنا سيعتقد أننا بالمئات، بل بالآلاف؛ لكننا خمسة. فتاة واحدة وأربعة شباب. هي الأسوأ. لا تتوقف، في الواقع، نحاول تحذير الناس، هذه هي وظيفتنا. يتعلق الأمر بعدم ترك الناس تنسى، ألا يتجمد عقلهم، ولكن من أجل ذلك يجب إيقافهم، أولاً، جسديًا: لهذا السبب نتصرف أكثر في المدن، حيث زادت متوسط سرعة المشي كثيرًا، ولا أعرف ما إذا كنت قد لاحظت ذلك. إذا أردنا إجراء حساب للوتيرة التي اعتاد الناس المشي بها عبر المدن ومقارنتها بالسرعة الحالية، فسنصل إلى استنتاج مفاده أن الأرجل تصاحب التطور التقني: كل شيء في تسارع والأرجل ليست باستثناء؛ وبسبب هذه السرعة، فإن اللافتات ضرورية، اللافتات الجيدة، والصور الجيدة، والعبارات الجيدة، وهذا ما يجبرنا على التوقف، التوقف لفترة من الوقت، الوقت اللازم للاستيعاب البصري، دعنا نفند الأمر على هذا النحو، الصورة، ثم استيعاب النص، العبارة، على الرغم من أنه ربما يحتاج أحداها للآخر في الوقت نفسه، ولهذا السبب نبحث عن الصور والعبارات التي تصل إلى العقل، تتوغل داخل العقل، إلى ذلك الجزء حيث تعمل الذاكرة؛ لأننا لا نستطيع ارتكاب الخطأ في إعطاء الصور للعين والجمل للعقل، علينا أن نخلط كل ذلك. لا نريد أن نخلق مأساة، هذا ليس هذا ما يدور حوله الأمر، انه ليس بالأمر الدائم، إنه فقط يثير صراخًا آنيا»، قال فريد.

نحاول، جزئيًا، أن نتذكر ما حدث وما يحدث في أماكن أخرى؛ لإثارة الذاكرة، في بعض الأحيان يتعلق الأمر بذلك أيضًا ـ إظهار ما يحدث على ذلك الجانب الذي لا نراه. النظر بعيدًا، يا صديقي العزيز، تلك هي إحدى الصفات العظيمة للذاكرة، فهي لا تتعلق فقط بالنظر إلى الوراء، ولكن أيضًا بالنظر في بواطن الأمور؛ ترتبط الذاكرة بالملاحظ الجيد للمكان أكثر من ارتباطها بالملاحظ الجيد في الزمن؛ لكن نعم، تابع دون أن ينبت ماريوش ببنت شفه، «لقد ازدادت الوتيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشكل كبير، على الرغم من أن الشيء المهم هو الثبات. لا يمكننا أن نتفحص شيء ما ونحن نهرب».

تابع فريد، «نحن نحاول أن نكون حذرين، نضع الملصقات في الشوارع الجانبية، والشوارع الثانوية، هناك حيث سيتم تحديد كل شيء. ليس في الشوارع الرئيسية، حيث الكثير من الافراط في الضوء والضوضاء والتسارع؛ اللافتات تؤدي دورها في الأماكن المعتمة، مثل ذلك الشارع الذي نحن فيه. لو كنت أتيت مع الفتاة عبر الشارع الرئيسي، لما التقينا، لكني أحب الأشخاص الذين يصلون إلى محطات القطار عبر الشوارع الثانوية، فهذا دليل على أن لديهم شيئًا يخفونه، اعدرني لقول ذلك، انه لشيء يعجبني.

لا يتعلق الأمر بخلق ثورة، فنحن لا نحب تلك الكلمة، إن الأمر، في المقام الأول، حول مشروع تكاملي: نقل القلق التدريجي، الذي ينمو شهرًا بعد شهر، تقريبًا دون أن نشعر به. من خلال التكرار، عن طريق عدم ترك مجال لأي نوع من الهدنة أو الانقطاع، باختصار، عن طريق عدم الاستسلام... تداول رسائل عدم الرضا، وكلمات السخط، وتكرار الضربات الصغيرة، في النهاية، الهدم، هذا جزء من استراتيجيتنا.

تابع فريد، «في بعض الأحيان، نحن نوزع المنشورات من يد إلى يد، ولكن ليس كما هو معتاد، فنحن نختار بعناية الأشخاص الذين نسلم لهم المنشورات؛ لدينا بعض المال، لكننا لسنا أصحاب الملايين، إلى جانب ذلك، ليست هذه هي القضية، إنها تتعلق باختيار: عندما نسلم المنشورات، نختار عن طريق الوجوه؛ ليس مع اللافتات: الناس أنفسهم هم من يختارون أنفسهم. من الواضح أن اختيار وجه الأشخاص الذين نوزع عليهم المنشورات طريقة قديمة، كما لو كنا في العصور الوسطى، حيث تم اتخاذ تسعين بالمائة من القرارات الكبيرة بناءً على الفراسة. مات والداي ـ على حد قول فريد- كل واحد على ضفة من العالم، نحن خمسة أشقاء وكلنا على قيد الحياة، وكل واحد في الجزء الخاص به من أوروبا، حتى إذا رغبت في أن أخبرك مكانهم، فأنا لا أعرف أين موقعهم اليوم، الكبير أتوقع كونه في الجنوب، كنت معه منذ أسبوع، أخبرني أنه سيذهب إلى تلك المنطقة، لكن لا يمكنك أبدًا التأكد من ذلك. ومع ذلك، فإن أفضل أمانينا تنصب على أصغرنا ـ اسمه والتر، والتر ستام. هو الاكثر ذكاءً.

والأكثر اقناعا بين الستة. في الواقع، هناك ستة منا، لكن السادس لا يعد. لقد غادر منذ وقت طويل. نلتقي جميعًا، نحن الخمسة، كل ثلاثة أشهر بالضبط في اليوم الثاني عشر في المنزل الذي غادره آباؤنا (في مارس ويونيو وسبتمبر وديسمبر)، حينئذ نعم، إذا لم يأت أحدنا، ينتابنا الخوف، لكن حتى الآن دائما ما نصل، البعض في وقت لاحق، البعض حتى عندما ينتهي اليوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثاني عشر، ليلاً...، لكننا دائما ما وصلنا.

كما تعلمون، موضوع اللافتات هذه هي هوس، بالطبع، ستقولون لي، ربما ليس لها أي آثار عملية، وإذا قمنا بتقييم الوضع في هدوء يمكننا أن نستنتج أنها ليست كذلك. من الواضح أن اللافتات مآلها الإزالة؛ إذا كان أحدث قوانين المدينة ينص على حظر تعليق الملصقات على ذلك الجدار... حتى لو كشفت اللافتة، دعنا نتخيل، عن سر مهم للغاية، أو حتى لو سيتمكن الملصق من أن ينقذ آلاف الأرواح، الي حد، دعونا نتخيل، أن الملصق يمكن أن ينقذ حياة نفس الرجل الذي سوف يمزقه من على الحائط إذا ما كان على دراية بذلك، إذا كان رجلاً متحضرًا، على قدر عال من الالتزام بالقانون، فسوف يقوم بتمزيق اللافتة والقاءها وبالتالي سيقال عنه إنه مواطن صالح ـ وفي هذه البادرة يمكننا أن نرى نوعًا من التضحية الكلاسيكية بالفرد فيما يتعلق بنظام المدينة؛ وإذا كان هناك أي صراع مهم، فهو هذا: بين أولئك الذين يريدون الحفاظ على النظام وأولئك الذين يريدون التسبب في قيام مظاهرات احتجاجية صغيرة، أولاً، ثم بعد ذلك، نعم...، يومًا ما، هذا ما نتوقعه جميعًا، الناس، القادمون من أجزاء مختلفة من أوروبا، سيجتمعون جميعًا في نفس المسار ويتقدمون؛ إلى أين، هذا هو أحد الأسئلة؛ اليوم يكاد يكون من المستحيل تحديد مقر السلطة، فقد انتشرت السلطة أكثر من اللازم، وهي موجودة في كل مكان، ولم يعد هناك قصر أو برلمان يستحق الهدم. أو ربما يوجد، سنرى عندما يحين الوقت.

قال فريد ـ لكنني أحادثك عن فعالية هذا إذا قمنا بعملية حسابية بسيطة، بهدوء، دون المبالغة في الحماس، دون التفكير في أن ملصق عادي سيبقى في مكانه لمدة أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع ـ في المتوسط، لأن البعض تمزق فعلياً سريعاً، في اليوم التالي، ولكن هناك ملصقات أخرى وضعتها منذ سنوات، وبعد ذلك، حينما أعود إلى نفس النقطة من المدينة، فإنها لا تزال موجودة، نصفها مهترأ، ولكنها الى ذلك الحين ما زالت أقوى، أشعر بها، كما لو أدى اهتراء الملصق إلى زيادته قوة؛ في النهاية يختفون دائمًا، لكن أصواتهم ما زالت مسموعة. بالطبع لهذا لا نضع اللافتات الإعلانية في الشوارع الرئيسية. لأنها سوف تقتلع على الفور، وحينئذ تكون قوة ضد قوة، وضوء ضد ضوء؛ ستقاتل اللافتة جنبًا إلى جنب مع الإعلانات الترويجية في المتاجر، وسيتم الخلط بينها، ويمكن أن تفوز أو تُهزم، ويكون الفائز هو من يستطيع جذب انتباه كل من يمر، ولكن على أي حال سيكون الأمر كذلك هزيمة لأنها ستواجه أعداء لا فائدة لهم. اختيار الخصوم الجيدين هو من أصعب المهام، يمكن لأي شخص أن يكون خصمًا لنا؛ على العكس من ذلك، هناك القليل ممن نلتقي بهم والذين يمكن أن يكونوا أصدقاء لنا...، لقد ارتكبنا أخطاء، بسبب سوء الفهم، تكوين الأعداء هو أسهل الطرق في العالم، إنه ليس مثل مطاردة حيوان نادر؛ نحن خمستنا نختار بشكل جيد منافسي لافتاتنا! قال فريد، لكن هلا نقوم بالحسابات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا ظلت احدى لوحاتنا، في المتوسط، في مكانها مدة من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، وإذا مر خمسة آلاف شخص في هذا الشارع خلال الأسابيع الثلاثة... هل تعتقد أن هذا كثير؟ إنه ليس بالقليل. من الصباح إلى الليل، خمسة آلاف شخص لمدة ثلاثة أسابيع انه عدد قليل ـ هل سبق لك أن أحصيت الناس في العالم؟ نحن كثر. ونعم، من بين هؤلاء الخمسة آلاف شخص، نصفهم ينتبهون إلى اللافتة، ويقرأون الكلمات، وينظرون إلى الصورة لمدة ثانية واحدة، وثانيتين، وثلاث، وأربع، وخمس، وست، وسبع ثوان، سبع ثوان، هذا كثير، نعم كثير، هذا أطول بكثير من الوقت المعتاد الذي يقضيه الأشخاص في النظر إلى صورة ما، والوقت المعتاد هو جزء من الألف من الثانية، هذا كل شيء، انها نظرة ثم تهرب، كما لو خشي الناس العمى من طول النظر إلى نفس الصورة، يريدون على الفور أن يروا أخري؛ كما لو أن الصور الأخرى تنتظر أن ينظر إليها الناس، الصور موجودة في قائمة الانتظار، تنتقم من عيون أولئك الذين يبقون طويلاً أمام صورة واحدة؛ حسنًا، كما كنت أخبرك ـ قال فريد ـ إذا تمكنا من ان ينظر نصف نصف الأشخاص الذين يمرون بهذا الشارع إلى صورتنا وعبارتنا لمدة ثانية، اثنتين، ثلاثة، أربع، خمس، ست ثوان، ذلك إنه بالفعل يستحق الكثير. قم بالحسابات، نصف الخمسة آلاف الذين يمرون في الشارع هو ألفان وخمسمائة، ونصف ألفان وخمسمائة أكثر أو أقل من ألف ومائتين، ونصف ألف ومائتين هو ستمائة، إنه رقم مذهل، نعم، إنه مبالغ فيه، لكن لنقم بواحدة من أكثر العمليات الجذرية اختصاراً، لنزيل صفرًا، فلنتحدث ليس عن ستمائة، ولكن حوالي ستين، ستة أشخاص يرون ذلك الملصق الذي وضعته مؤخرًا والذي شاهدته أنت والفتاة، متوقفين، ناظرين إليه، متوجهين اليه، إذن، شيء ما سيحدث، لأنها لافتة، لافتة واحدة؛ وهناك خمسة منا فقط ونحن في كل مكان، بل هناك من يعرفنا: عائلة ستام، وضعنا الآلاف من اللافتات في جميع مدن أوروبا، واضرب عدد الأشخاص المتأثرين بتلك اللافتات في الرقم من الناس هذه اللحظة، في أكثر شوارع أوروبا خفية، يصادفون ملصقاتنا: إنه حشد، نحن نشكل جيشًا؛ ولا يتعلق الأمر بحمل السلاح هنا، فأنا أحمل سلاحًا في متاعي، لكن الأمر لا يتعلق بذلك، لا نريد أن يحمل الناس السلاح، على الأقل ليس الآن، نريد أن تنشيط ذاكرة الشعوب، يرون التفاصيل، يمتلأوا بالغضب الذي يجب احتواؤه والسيطرة عليه وتركيزه، بحيث يخرج لاحقًا بقوة أكبر، ولكن في الوقت المناسب، بالتزامن مع آلاف التوترات الأخرى المركزة على مر السنين ـ يتعلق الأمر بزيادة غضب الأفراد، لكن في نفس الوقت السيطرة عليه، بمعنى: ليس الآن، سيأتي الوقت، لكن ليس الآن.

كل شيء يبدأ من هذه المناظر، في الصور. تلك هي مقدمتنا؛ الآن، ليس هناك من تقدم ولا من تغييرات كبيرة. أولاً يدور الأمر حول، أن نجعل من يمر هناك يلتفت، فقط قليلاً، مثل رجل يسير في الشارع بسرعة عالية، أو مشتتًا تمامًا، انه نفس الشيء تقريبًا، وفجأة ينادي أحد باسمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن ثم يفيق ويستدير ليرى من يناديه. هذا ما نقوم به، نحن ننادي الرجال، واحدًا تلو الآخر، ونأمل أن يسمعون وينظروا إلى الوراء؛ يتعلق الأمر بذلك فقط، نناديهم بالاسم، آملين أن يسمعوا وينظروا إلى الوراء؛ يتعلق الأمر بذلك فقط، في الوقت الحالي، هل تفهم؟ ربما، قريبًا، سيجد الكثير ممن تمت مناداتهم بالاسم أنفسهم في نفس المكان، ساعين خلف نفس الهدف. وأنا متأكد من أنه في ذلك الوقت لن يكون من السهل الحفاظ على النظام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

كيف يمكنني المساعدة؟

ستخبرني أن هذا ينم عن جنون العظمة، نعم، هذا صحيح. لكن لم يتبق لنا سوى ذلك، ليس لدينا أطفال، وقد اختفى آباؤنا.

فجأة، كما بدأ فريد الكلام، صمت، وكما ظل ملازماً لنا، مثل سلاح لا يصمت لساعات، بنفس الطريقة، في تلك اللحظة، ألقي بجذعه الى الخلف، انحنى إلى الوراء. ظهره إلى المقعد في وضع من الاستسلام المرهق، كشخص يطلب من الآخرين التقدم وتكرار ما فعله للتو، وقال، ملتفتاً إلى حنّة وإليّ:

- وأنتم؟ من أين أتيتم؟

حاولت أن أشرح له أنه ليس رجلاً ثرثارًا. أحب الاستماع، فقلت له ليس لدي الكثير لأقوله.

سأل ملتفتاً إلى حنّة:

- ما اسمك؟

أجابت حنّة. لم يفهم ما قالته. كررَت حنّة، ما زال لم يفهم. كررت:

- اسمها حنّة.

- «حنّة، جيد جدا»، قال فريد..

- كم عمرك؟

أجابت، أربعة عشر، هذه المرة فهمها.

ابتسم فريد بلطف. ثم قالت:

- العيون: سوداء اللون. والشعر: بني اللون.

فقلت مفسراً:

- لقد تعلمتها بهذه الطريقة.

بعد ذلك قالت:

- أنا أبحث عن والدي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسم فريد، ولم يقل شيئًا.

قلت: لقد وجدتها بمفردها، وسألت في جميع المحلات التجارية المجاورة وقرعت جرس جميع المباني المجاورة، لأيام مشيت حول المدينة لأرى ما إذا كان بإمكاني العثور على شخص يعرفها، ذهبت إلى ثلاث مؤسسات من تلك التي تتعامل مع مثل هذه الحالات؛ قلت، باختصار، في إحدى المؤسسات، لم تكن هناك سوى حالات تسومني 21؛ عندما سألتها عما إذا كانت تعرف حنّة، ابتسمت المديرة وأجابت بأن هناك ستة وعشرون حنّة هناك، فقط لا تتم مناداتهم بذلك، ثم أكدت أنه لا، لم يخرج أحد من هناك، لم يهرب أحد من هناك. هناك لأنه، إلى جانب انها تأكدت من العدد، إلا انها أضافت، إن الجميع يحبون التواجد هناك، وأنه لا يمكن استقبال شخص آخر، خاصةً من لا يُعرف من أين أتى أو من هم والديه؛ وأن كل شخص هناك لديه آباء معروفون تمامًا، وأنها مؤسسة تقوم بتعليم الأشخاص ذوي الإعاقة باتباع طرق معينة يوافق عليها الوالدان وأنه في حالتنا هذه ليس هناك آباء، على الرغم من أنني في الواقع، أدركت أن المشكلة لم تكن وجود أم عدم وجود أي من الوالدين، ولكن هي وجود أو عدم وجود شخص يدفع كل شهر.

كما أنني أريتها صندوق حنّة الخاص، هذا ـ طلبته من حنّة وأريته لفريد-، حيث توجد أوراق التعلم للأطفال ذوي الإعاقات الذهنية، وأخبرتني المديرة أنه نعم، هذه طريقة ممكنة، لكنهم لا يتبعوا هذه الخطوات، وأن لديهم مسارهم الخاص، وأن هذا الصندوق ليس نابع من مؤسستهم، ونعم، لقد اعتقدت أنه لا يوجد شيء في داخلي يستدعي عدم تصديقها ـ انتابني التفكير فيما يتجاوز ذلك بكثير، فكرة انهم ربما تركوها تهرب من هناك لأن والديها لم يدفعوا أو أن شخصًا ما لم يدفع لهم، لكن هذا سيكون تفكير مبالغ فيه وإلى جانب ذلك، لم تبد حنّة أدنى اهتمام عاطفي عندما ذهبنا إلى تلك المدرسة؛ كان من الواضح لي أنها لم تذهب إلى هناك من قبل، أو ربما لا، لا أدري، قد لا تظهر حنّة ردود فعل من هذا النوع، ما زلت لا أعرفها جيدًا ـ ولكن عند حد معين علينا أن نصدق الناس، ليس لدينا خيار آخر ـ لقد صدقت المديرة وما زلت أصدقها ـ وأود أن تجد حنّة والدها، وأود مساعدتها علي الوصول له، لكنني لست قديسًا؛ هناك مسار أعتقد أنه قد ينجح، ولكن إذا لم تجد في نهاية هذا المسار أبيها الذي تتحدث عنه أو شخصًا تربطها به علاقة ما، فسيتعين علي توصيلها إلى مدرسة ما؛ بالتأكيد ستُبقى عليها احدى المؤسسات، حتى لو لم يكن هناك مال أو آباء.

ثم صمتُ.

لكن بعد ذلك بدأت مرة أخرى ـ كان فريد من النوع الذي يعطي شعورًا بالأمان والثقة جعلني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشعر بالراحة، شعور مطمئنًا لأي شخص.

- «في النهاية، ستقبلها احدى المؤسسات التابعة للكنيسة. لكن قبل القانون الإلاهي، هناك قوانين بالتأكيد تنظم مثل هذه الحالات» ـ قلت ذلك ثم ضحكت بطريقة غبية.

في غضون ذلك، حافظت حنّة على خفة ظلها، مستمعة إليّ وكأنني أتحدث عن شخص آخر، من عالم آخر، استمعت إلىّ كأنني في بلد لا تعرف لغته، وبدافع من فضولها، تستمع إلى ثرثارين على الطاولة المجاورة في نفس المقهى يتحدثان عما لن تفهمه أبدًا.

- قلت لها: «أنا أتحدث عنك».

وأجابتني، وبدت وكأنها تمزح معنا، تمزح في إطارها الخاص؛ حتى بدا (انه لأمر غريب) أنها تتحدث بسخرية:

- العيون: سوداء. الشعر: بني.

وبعد أن قالت ذلك، فجأة، شرعت في الضحك، تضحك قليلاً دون حسيب ولا رقيب: نظرت إلى فريد ثم عدت إليها وابتسم كلانا نحاول أن نرسل لها رسالة مفادها نعم، أننا نتفهم، ونتفهم أسباب تلك القهقهات. ضحك غير منضبط. ربما لم نجد خلال بحثنا عن السبب تلك الشدة في الضحك، لكن نعم، فهمنا الأسباب، والتي لم تكن سخيفة: إنه ضحك منطقي، على الأقل هذا ما حاولت ابتسامتنا، فريد وأنا نقله. لاحقًا، بعد تلك الثواني التي بدت طويلة جدًا، توقفت عن الضحك بهذه الطريقة، والتي يجب أن أعترف أنها كانت محرجة-وأنا، دون أن أعرف السبب، لأنني لم أفعل ذلك من قبل، وضعت يدي على يدها اليسرى كما لو كنت أحاول إظهار بعض المودة. ولكن في الواقع، كان ما تخبرها يدي ببساطة: توقفي الآن، كفى، وضغط اليد والتفسير الذي قدمته وضعني لأول مرة في وضع غريب مثل شخص مسؤول، في جزء، بغض النظر عن النجاحات والإخفاقات أو الكوارث التي يسببها شخص أو آخر. في الواقع، وضعتني ضغطة يدي في نفس الوضع الذي هربت منه منذ سنوات عديدة، وضع الشخص الذي لا يستطيع الجري ببساطة عندما يحين الوقت الذي يتوجب فيه الجري: أولاً ينظر إلى جانبه، إلى الشخص الآخر، الذي يتوجب عليه مساعدته على الجري أو إعطائه التوجيهات. بالطبع كانت تلك نكسة. تخيلت تلك الصورة السخيفة لشخص يجب أن يركض بأقصى سرعة لإنقاذ حياته وفجأة ينظر إلى أسفل ويرى أن حذائه قديم جدًا، وأنه قد فقد جزءًا من النعل وأنه، مع كل خطوة، ينهار جزء منه وعندما يختفي النعل الذي بين القدمين والأرض، يتوقف الخطر عن القدوم من جهة من يطاردنا ويبدأ في الظهور من الأسفل، من الأرض نفسها، أو إذا شئنا الدقة، فإن الخطر يأتي من أقدامنا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هم ما، في النهاية، سيرغموننا على التوقف (وليس أعدائنا) لعدم تحملنا للألم أكثر؛ وأنا على دراية جيدة بحالة الضعف تلك التي نستسلم فيها، ليس بسبب الخوف من خصومنا، ولكن بسبب فشل أجسادنا.

بالنظر إلى حنة، إلى وضعية تقبلها لكل شيء، موقف شبه ديني وصوفي، بالنظر إليها، هناك، في السيارة، يتبين مدى استحالة شرح أنني فاراً ـ وأن ذلك الشخص الذي يريد الاختباء لا يمكنه، إنه ليس في وضع يسمح له بمساعدة شخص آخر في البحث عن شخص ما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

كتيب التعليمات

قطع فريد حبل أفكاري قائلاً بإن ما في يده، صندوق حنّة، الذي يحوي بداخله عدة بطاقات تتوافق مع الخطوات التي كان عليها أن تتبعها، كاد أن يجعل المرء يظن بأن شخصًا ما يثق كثيرًا في الآخرين، في البشر، لدرجة أنه قد ترك ابنته مع مجموعة من بطاقات التي تشكل دليل تدريباتها المهنية. وهذا يعني أنه وثق بالآخرين كثيرًا ـ مثل المجانين، همس فريد ـ لدرجة أنه لم يصدق فقط أن شخصًا سيتحمل معاناة مرافقتها، ولكن أيضًا أن ذلك الشخص سيعلمها الأشياء ويحقق تقدمًا في الأهداف المتعلقة ب (وكان فريد يقرأ بصوت عالٍ بعض الأهداف أثناء تصفحه الدليل): «النظافة، المهارات الحركية الدقيقة، التفاعل مع المنبهات الحركية الحسية». تابع فريد، في بعض الأحيان، ما زلت لا أعرف أن أفضل طريقة للرد على اللكمة هي بلكمة أخرى، وفي أحيان أخرى التظاهر بأنك لا تملك القوة للرد، «اكتساب عادات الجلوس على مائدة الطعام، الرد على الإيماءات والتعليمات اللفظية، والتفاعل مع الجنس بطريقة مقبولة اجتماعيا، تنفيذ أعمال بواسطة مواد معدنية، والاعتناء بالحيوانات»، والهدف التالي صعب. نعم، كم منا سيطبق ذلك؟ ثم تابع فريد: «شغل وقت الفراغ بطريقة مناسبة»، هل يمكنك أنت تحقيق ذلك؟، سألني فريد، ابتسمت من السؤال، لكن نعم، بالطبع، طريقة التعليم والتعلم للأشخاص ذوي الإعاقات الذهنية قد جعلتني أفكر، كم منا ليس لديه مشكلة أقل من ذلك، هذا صحيح، ولكن كم منا، على سبيل المثال، يعرف كيفية «شغل وقت الفراغ بطريقة مناسبة؟»، نعم، هذا صحيح، ثم قال، لكن لنكن واضحين إنها ليست مثلنا، وهذه ليست مأساة بالنسبة لنا، إنها مأساتها. يمكننا أن نطلق النكات حول ذلك الموضوع، لكن هي لا تستطيع ذلك، لأنها ببساطة لا تستطيع ذلك.

قال فريد، مستديرًا نحوي، مقاطعًا تفكيري وكأنه يعتذر لوالد الفتاة عن الوقاحة التي سيقولها، هذه ليست بالمعلومات الكافية، اعذر تشبيهي إذ أن الامر وكأنهم قد تخلوا عن آلة في منتصف الطريق، آلة غير معروفة أو غير عادية أو على الأقل نادرة جدًا، وكأنهم قد تخلوا عنها مع الحرص أيضًا على ترك دليل التعليمات حتى يعرف من التقطها، تلك الآلة الغريبة، ماذا يفعل بها، من أين يتم تشغيلها وكيف يمكن زيادة معدل أدائها. اعذرني على تشبيهي ـ كرر فريد ـ ، لكن هذا دليل إرشادي، حتى أنه يحتوي على رسومات ـ وفي الواقع، كان به رسومات لأصابع خرقاء تضغط على الأزرار، الأيدي تضغط بقوة زائدة لتنظيف الأسنان ببساطة، وهي مهمة لا تحتاج إلى القوة، ولكن بطريقة معينة، الى الخبرة، دعونا ندعوها بهذه الطريقة، مهمة تتطلب،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا وضعنا أنفسنا مكان شخص يعاني من صعوبات في الحركة، تركيزًا خاصًا للغاية. حسنًا، قال فريد، لا أدري من تخلى عنها، لا أعرف ما إذا كان من تخلى عنها يستحق كراهيتنا وانتقامنا لارتكابه هذا الفعل الغاشم بالتخلي عن شخص أضعف من أن يدافع عن نفسه بالحد الأدنى، أو يستحق شكرنا.

لماذا يستحق شكرنا؟ ـ أردت أن أسأله، لكننا كنا بالفعل وصلنا إلى برلين، في المحطة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

الوداع

نصحنا فريد، الذي مكث في المحطة في انتظار قطار آخر ـ لمتابعة رحلته ـ بفندق ليس بعيدًا عن هناك، زهيد الثمن، يخص زوجين قاما بحماية أسرتهما منذ سنوات عديدة وسيعتنيان بنا جيداً، على حد قوله، ثم توجهنا إلى الفندق، حنة وأنا، بعد العشاء، مع ورقة تحتوي العنوان مكتوبة بخط يد فريد، والتي أضاف على الجانب الآخر (لا يمكنني كتابة الأشياء المفيدة فقط، كما قال) الكلمات الغامضة اهتزاز المشهد الطبيعي لن توقف الحياة ـ وبعد ذلك كتب فريد ستام بصداقة. ودع كل منا الآخر بطريقة غريبة ـ بالكاد عرفته، لقد كانت محادثة قصيرة لعدة ساعات فقط ـ عناق طويل في المحطة، ثم فعل الشيء نفسه مع حنة، لكن مرات عديدة، كان يهزها بقوة جعلتني أشعر بالخوف من يحدث الأسوأ، رد فعل غير متوقع من جانبها ـ هل ستصرخ، هل ستبدأ في نزع نفسها من بين زراعية؟ لكن لا: لقد استجابت بأفضل ما تستطيع بذراعيها الغلينتين اللتين تضربان فخذ فريد مرارًا وتكرارًا، كما لو كانتا آلة إيقاعية ودودة، آلة تضربنا خلال عناقها لنا؛ والصورة الغريبة ـ قد يقول شخص آخر أنها جميلة، ولكنها لم تكن، بل على العكس تمامًا، عند تحليلها ببرود يتبين أنها فظيعة في النهاية ـ كانت أن فريد، مثلي، بدا وكأنه يعتذر عن عدم كونه مثلها، عن كونه طبيعيًا وعن فهمه للأشياء؛ ندرك تمامًا أننا يمكن أن نخرج من حزننا، مهما كان عمقه، لكنها لا تستطع الخروج من عدد حالات العجز التي كانت لديها، كما لو كانت محاطة بالكثير من العالم ـ لأن العالم يظل دائمًا هو نفسه بالنسبة للجميع، ولكن هي لديها الكثير من العالم وفي بعض الأحيان نحن ينقصنا عالم. ومع ذلك، فإن تحية فريد الأخيرة واستجابتي كانتا أكثر ما أحرجني. كان يودعني كما لو كنت، ماريوش، رجلاً صالحًا، شخصًا كان يقوم بكرم نادر الحدوث، لكنني كنت على دراية بأنني لست كذلك، مع ذلك، كيف يمكنني شرح ذلك له هناك، وما السبب الذي يقودني إلى القيام بذلك؟ لذلك حاولت ـ وكان هذا هو السبب في الشعور بالخجل الذي انتابني، أبادل الوداع كما لو كانت يديّ حقًا يديّ رجل صالح؛ في أعماقنا، أحيانًا، نحن على قيد الحياة من أجل ذلك فقط ـ لقبول ما يحدث ثم المضي قدمًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

الفندق

1

الفندق

ربما كانت الأزقة الفرعية التي تؤدي إلى الفندق مظلمة وضيقة بشكل مفرط ـ مما جعل المرء يشك في أن هذا العنوان قد يؤدي إلى مبنى متهالك تمامًا.

خططت للبقاء هناك مع حنّة لبضعة أيام. وإذا سارت الأمور على ما يرام، فسأتمكن من إيصالها إلى الشخص المناسب ـ على الأقل كان هذا ما فكرت فيه مع الكثير من التركيز. كان الأمر يتعلق بالبحث في المدينة، في بعض المؤسسات، واتباع أدلة من جسم صغير كانت تحمله حنّة في الوقت الذي وجدتها فيه بمفردها، والذي يمكن أن يقودنا ذلك إلى مكان والدها.

كان الفندق، على الرغم من أنه يقع في شارع للمشاة فقط، حيث كان القسم الأول يسيطرن عليه البغايا، على كلا الجانبين، إلا أنه كان مضيئاً للغاية ـ يقع بالفعل على بعد أمتار قليلة من الشقق والغرف التي تخدم الدعارة. عند الباب، امرأة بدينة جدًا، دعتنا للدخول، ألقت نظرة مثيرة للاشمئزاز في اتجاه تلك المنطقة. أخذت في التثاقل خلفنا، ثم مرّت من أمامنا ودارت لتقف خلف مكتب استقبال الفندق. كانت القاعة واسعة ولا تحتاج الي أدنى تعديل. بدا الأمر مريحًا. من جانبها، كانت المرأة سمينة بشكل فاحش، مع ثدين بارزين من ثوب عفي عليه الزمن أخضر اللون وبقع سوداء تبدو للوهلة الأولى وكأنها ثقوب بقطر 2 إلى 3 سم من خلالها، أعتقد أنه يمكن للمرء أن يتجسس علي ما بداخل المرأة كما يتم التجسس، سراً، من خلال ثقب المفتاح؛ وفي تلك اللحظة تخيلتني منزلقًا بداخل تلك النقاط السوداء على الفستان للتجسس وأنه في وضع معين، تمكنت أخيرًا من رؤية ما كان يحدث على الجانب الآخر وفي اللحظة المحددة التي كانت فيها عيني على استعداد للتعرف على الأشكال التي رأيتها ومنحها اسمًا، مسمارًا، إبرة، وجسمًا من هذا القبيل، أصيبت عيني فجأة، وأطلقت صرخة متراجعاً وأخبرت صاحبة الفستان أنني لا أريد أن أنظر هناك بعد الآن، لأنني أصبت بالعمى.

- هل هي ابنتك؟ ـ سألت.

- نعم ـ أجبتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طلبت غرفة بسريرين. هذا ما فعلناه دائمًا. ابتسمت المرأة لحنّة. ابتسمت حنّة. كان من السهل جدًا أن تحبها، وأحيانًا يكون الأمر سهلًا بطريقة غير عادية.

وضعت السيدة مفتاحًا على المنضدة. مفتاح عادي متصل به قرص خشبي مكتوب عليه اسم. حدقت في اسم الغرفة.

ألا تحتوي الغرف على أرقام؟ ـ سألت.

لديهم أسماء فقط. إن الفندق صغير هكذا يسهل الوصول إليها. إنها بعد هذا المدخل الطويل. سوف تجد الغرفة مباشرة.

نظرت إلى القرص الخشبي مرة أخرى. لم يكن هناك من شك. ان ما تمت كتابته على اللوحة الخشبية كان اوشفتيز(2)

- هل هذا اسم الغرفة؟

- أجابت، نعم.

- هل لديك أخرى؟

- لدينا أخرى فارغة. وبها سريرين. ولكن إذا كان ذلك بسبب اسم الغرفة، فلن يفيدك ذلك التغيير كثيرًا.

وابتعدت حتى أتمكن من أن أرى خلفها مخطط غرف الفندق. جميعها تم تسميتها باسم من أسماء معسكرات اعتقال: تريبلينكا(3) وداخاو(4) وماوتهاوزن(5)

فكر ماريوش في عدة أشياء في نفس الوقت. شعر برغبة في الالتفاف على الفور وإخراج حنّة من هناك، لكنه لم تفعل.

- لماذا تفعلون ذلك؟

- أجابت السيدة بجفاف. نحن يهود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

الغرفة

في المرة الأولى التي قمنا أخذنا فيها مسارنا إلى الغرفة، كدت أؤذي يد حنّة اليمنى بسبب شدة الضغط عليها بيدي اليسرى. كنت أحمل المفتاح في يدي الأخرى وكان جزءًا من الاسم المدرج على الخشب ما زال بارزا حيث أن أصابعي لم تغطيه ـ مما تسبب في مزيد من الغرابة، ومن العدل أن أقول ذلك، في خوفًا معينًا. نظرت بطرف عيني إلى اليد، وما رأيته فوقه كان هذا:

أو..... ز، المساحة في المنتصف التي تشغلها الأصابع التي كانت، بشكل طفيف جدًا، ترتجف بالتأكيد.

نحن نتقدم. تحتوي كل غرفة على صفيحة معدنية، أعلى بقليل من ثقب الباب، مكتوب عليها الاسم. الأول على الجانب الأيمن كان بوخنفالد، والثاني جروس روزن، والثالث كان لنا، اوشفتيز. أدخلت المفتاح في القفل، وأدرته في اتجاه، ثم في الاتجاه الآخر: فتح. بذراع واحدة دفعت الباب للخلف، اندفعت حنّة إلى الغرفة بسرعة، كما دائمًا ما تفعل. كانت الغرفة تحتوي على سريرين ـ أحدهما أكبر، والذي سيكون سرير حنّة، والآخر الأصغر وسيكون لي، ولكنه يبدو مريحًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

الابتسام في الشارع

غادرنا الفندق في وقت مبكر من الصباح ـ كان هناك الكثير للقيام به في ذلك اليوم ـ فقط عندما ابتعدنا، تذكرت أن الفندق ليس له اسم، أو على الأقل لم يكن هذا الاسم مرئيًا لي من أي مكان ـ ليس عند المدخل، ليس في أي مكان. التوثيق الوحيد الذي يتوجب علي أن أتذكر، والتي لم تكن مهمة، فقط التفاصيل التي، في طريق العودة، يجب أن أنتبه إليها.

في وقت متأخر من الصباح عرجنا على الشارع الرئيسي، منخرطين في أنشطة ترفيهية غير مهمة تجذب حنّة: عد الأشياء المتشابهة ـ أضواء الشوارع، المقاعد الصغيرة في الشارع ـ أو الأشخاص الذين يرتدون نوعًا معينًا من الملابس، الأشخاص الذين يرتدون المعاطف الطويلة، واحد، اثنان... ثلاثة أشخاص يرتدون قبعات ـ واحدة، اثنتان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة؛ نساء ذوات الشعر الطويل، نساء ذوات الشعر القصير، الرجال ذوي اللحى، بدون اللحى؛ الكلاب والسيارات ذات اللون الأسود والسيارات ذات اللون الرمادي.

اقترحت، في تلك اللحظة، إحصاء الأشخاص الذين يمرون وعلي وجوههم ابتسامة وبدأنا العد، وفي البداية بدا أن هناك القليل ـ واحد، هناك في الخلف، اثنان، ثلاثة ـ ولكن الشيء الأكثر إثارة للاهتمام هو أنه كان هناك أشخاص العديد من الأشخاص المبتسمين، واتضح بعد لحظة معينة وجود علاقة مباشرة بين الابتسامات والتقارب الجسدي، خاصة. بطريقة موضوعية، كان هناك العديد من الأشخاص الذين ابتسموا عند تواجدهم بالقرب منا. قد تعتقد أن هذا هو بمحض الصدفة وأن الحقيقة البسيطة كانت أن الأشخاص البعيدين كانوا أكثر حيادية أو غير سعداء، لكن ما حدث حقًا هو أن حنّة تصرفت كما لو انها تؤدي موقف مضحك، مما أدى دون وعي إلى ظهور التعبيرات الودية. وبصورة ثابتة تقريبًا، كان الأشخاص الذين مروا بنا ينفجر لديهم شيء ما، قبل ثوانٍ، شيء جعلهم مستهترين، وبدون أي دفاع من أي نوع، ومن ثم يبتسمون بحنان وانفتاح، أحيانًا لها، وأحيانًا في وجهي، وأحيانًا في وجهنا نحن الاثنين.

وهكذا، من الواضح أن العد الذي أجريناه أنا وحنّة وصل إلى أبعاد غير واقعية. ربما في خمسة عشر دقيقة، لا أكثر ـ في مناسبة أخرى كررنا فيها المباراة، حاولت أن أؤكد بالضبط وقت المشي، وهو ما لم يحدث في المرة الاولى ـ كما قلت، فيما لا يزيد عن خمسة عشر دقيقة أحصينا ست وسبعين مبتسماً. حتى لو كنا نسير في الشارع الرئيسي للمدينة في وقت مزدحم من اليوم ـ قبل الغداء ـ فإن هذا الرقم غير مبرر؛ لم يكن من الضروري أن تكون متشائمًا لكي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدرك أنه من المستحيل أن تكون هناك الكثير من السعادة، على سبيل المثال، في كل متر مربع. وشعرت أن حنة تعمل كعنصر غريب يفصل المياه المتداخلة. بدا أن المدينة وعناصرها البشرية ـ وحتى العناصر غير البشرية (حتى الأشياء الثابتة، كأعمدة الإنارة) ـ اتخذت جانبًا أو آخر عند اقترابها، ولكن حنة عكس ما يحدث عندما رجل ذا سلطة أو قافلة من السيارات ذات أهمية تعبر الطريق، حيث يتم تعيين مساحة لطريقه، مترًا إضافيًا إلى اليمين أو اليسار ـ تم القيام بذلك بسرور عميق وواضح، متعة تم تخيلها، ثم، بشكل يكاد يكون معصومًا، من خلال ابتسامة في تلك اللحظة الحاسمة والمؤثرة في تاريخ المدن، والتي نادرًا ما يتم إيلاء الاهتمام الواجب لها، تلك اللحظة شديدة الحزم التي يتقاطع فيها شخصان أو أكثر يسيران في اتجاهين متعاكسين، ليس فقط في خط قريب من الرجال، بدون الملاحظة بصريًا. أصبحت تلك اللحظة التي ألتقي فيها بأشخاص آخرين بالنسبة لي ـ في العديد من المناسبات الأخرى ـ لحظة ارتياح، كما لو كنت أهمس لنفسي: مرة أخرى، واحدة أخرى! لا موضوع الإغواء ولا قضيته. جزء كبير من الشعور الاستثنائي بالاعتراف الذي شعرت به كان ناتجًا عن التوقعات التي نشأت في الرحلة القصيرة ـ المكانية والزمانية ـ التي انطلقت من تلك اللحظة التي، على بعد ثلاثين مترًا، دعنا نقول، رأينا شخصًا وحتى تلك اللحظة المشار إليها التي، إذا أردنا وبذلنا جهدًا، يمكننا رؤية لون عيون الآخر، ويمكن للآخر رؤية لون أعيننا، من مسافة قريبة جدًا. ونعم، عندما تلتقي عيون الناس بعيون حنة يبتسمون في تعاطف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

تناول الطعام

توقفنا في وقت لاحق من ذلك اليوم لتناول الطعام، وجلسنا وجهًا لوجه في أحد المطاعم، بينما أراقبها وهي تلتهم قطعة الكعك، تذكرت المرات التي سألتها فيها عن اسم والدها وكيف كانت تجيب دائمًا، كما لو أنها إذا ما كشفت النقاب عن اسم والدها سيفقئون عينيها وينزعون لسانها. تقول هذا بكل هدوء وفي نفس الوقت بنوع من الرعب غير المصنف. إذا قلت اسم والدي، فسوف ينزعون لساني ويفقئون عيني! ثم تقوم بإيماءات، تحاكي تلك التعبيرات.

لذلك كنت أفكر في ذلك بينما رأيت في فمها الصراع بين الأسنان واللسان، بين الرغبة في تناول الطعام والرغبة في التحدث، بين الاحتياج، الحاجة للتغذية المستمرة، والقدرة على التحدث التي تميزنا تمامًا عن أي حيوان آخر. وكان واضحًا لي أنه إذا فقدت ألسنتنا يومًا ما، إذا ما اختفت، إذا ما كانوا سيقطعون السنتنا كما تخشى حنّة، فإن الشوق الشديد والحنين إلى الماضي سينبتان بداخلنا، وليس الحنين الي نطق الحروف بطريقة صحيحة، والألفاظ الجيدة. ولكن الي ما هو أكثر من ذلك بكثير للتذوق، ونكهة الطعام، والرضا الفسيولوجي الذي يتحصل عليه الفم، أو حتى يسرقه، بعد كل وجبة.

عوداً الي سؤالي ـ من قال لك ذلك؟ هذا الشيء... العيون، اللسان ـ صمتت حنّة ودخلت إلى عالم آخر؛ تتخلي عني، وعن إعطائي أية تفسيرات. في بعض الأحيان، اعتقدت أن والدها ربما يكون هو من قد وجه اليها هذا التهديد، وفي أحيان أخرى اعتقدت أنه يمكن أن يكون شخصًا آخر ـ من؟ الأم، على سبيل المثال، إذا كانت موجودة؛ لم تأت حنّة على ذكر والدتها أبدا، فقد مثلت فراغًا تامًا في مراجعها. أو طبيب أو صديق أو فتاة أخرى مصابة بمرض الترايسومي 21 أثناء ألعاب الأطفال العنيفة أحيانًا. في أوقات أخرى، توصلت إلى استنتاج مفاده أن حنّة تقول أشياء ليس لها معنى فعلي، وأنها ببساطة تختلقها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الرابع

الصعود والهبوط

1

الدوار

في المساء، وجدنا عنوان منزل تاجر التحف الذي كنت أبحث عنه. كان مبنى مهجورًا في الجزء القديم من المدينة، مكون من أربعة طوابق، لا يسكن فيه أحد، من الطابق السفلي إلى الطابق الثالث، إذا ما افترضنا أن كل مسكن يبدأ ببابٍ يمكن إغلاقه ويمثل الحد، الفصل، بين الجزء الداخلي ـ المنزل ـ والجزء الخارجي ـ العالم. حسنًا، حتى الطابق الرابع لم يكن هناك باب واحد وما كان سابقًا منازل عائلية، فقيرة، بلا شك، هي الآن بقايا من عناصر البناء، مثل نص بسبب سهو مفاجئ (بقعة نتجت عن انسكاب الماء عليه) فقد جزء من كلماته والجمل بأكملها حتى أصبح غير مقروء حيث وصل إلى نقطة عدم الفهم التي تكون فيها أي فكرة لإعادة البناء مستحيلة. هنا، إذن، ما شعر به ماريوش عندما نظر إلى تلك الشقق القديمة التي تحولت الآن إلى أنقاض، تلوح لأولئك الذين صعدوا سلالم المبنى ـ على هيئة منازل، لكن، منازل غير مفهومة، لا يمكن تخيل شكلها كمنازل لأنه لا يمكن إعادة بنائها؛ العلامات التي بقيت، والتي نجت، لا تكفي؛ إنه ليس مجرد وجه لا يمكن التعرف عليه، ولكنه وجه فقد إنسانيته وبالتالي يتطلب كلمة أخرى لتسميته. لذلك كان الصعود إلى *تحف الفضيلة* لحظة فيض من المشاعر، التي كلها تقريبًا غير سارة. كيف فسرت حنّة ما رأت؟ ـ فكر ماريوش-، كأنها في لعبة؟؟ هل ستشعر بالخوف؟ هنا يقطن تاجر التحف الذي أخبرتك عنه، كرر ماريوش ذلك ثلاث مرات، ليس فقط لطمأنتها، ولكن أيضًا، بطريقة ما، للتحدث مع نفسه أنه لم يختلط عليه المكان. بعيدًا عن تلك المناظر الطبيعية المهجورة التي بالكاد يمكن تمييز ملامحها ـ لأنه لم يكن هناك ضوء على الدرج، فإن الضوء الوحيد الموجود يأتي عبر النوافذ، والذي كان من الواضح أنه لم يكن كافيًا ـ كان من الضروري أيضًا حساب الجهد البدني الذي، فجأة، أصبح جلياً تمامًا، بسبب الصوت الذي يكاد يصم الآذان خاصة في تلك الظروف، أولاً صوت تنفس حنّة، ثم صوت نفس ماريوش اللهاث. مصدر آخر للخطر ـ والذي، مع كل درجة يصعدونها، تزداد نسبته أكثر فأكثر ـ ألا وهو حقيقة أن السلالم الحجرية، القديمة جدًا، ذات الدرجات غير المنتظمة، لم يكن بها أي درابزين، أو أدنى نوع من أنواع الأمان الجانبي، لذلك اضطر كل من ماريوش وحنّة إلى الصعود بالقرب من الجدار قدر الإمكان، لأن بدءاً من الطابق الثاني فإن أقل سقطة ستتسبب في مأساة. في لحظة معينة، بدا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لماريوش أنهم وصلوا إلى نهاية الخيط. كان يحاول، كما هو الحال دائمًا، حماية حنّة، لذلك من الطبيعي أن يترك لها الجانب الداخلي للدرج ـ كانت حنّة أحيانًا تسند بيدها اليسرى على الحائط لتحافظ على توازنها عند الضرورة، وكان ماريوش يمسك، كما جرت عادته أيضاً، بيده اليسرى يد حنّة اليمنى، وهكذا بقي ناحية الخارج، على بعد أقل من نصف متر من هوة عميقة ـ مثل أي حفرة أخرى، مظلمة ـ مما جعله على بعد بضع سنتيمترات من احتمالية السقوط الرهيب الذي بدأ يرتسم. لم يسبق له أن شعر بذلك من قبل، ولكن الآن في خلال عملية الصعود تلك، أصبح جلياً: أن ماريوش بدأ يعاني من الدوار، وقد اتخذ بضع خطوات مترنحة ليس بسبب عدم انتظام درجات السلم ولكن، على ارتفاع معين، بسبب خلل في الحركة أو، بشكل أكثر تحديدًا، بسبب عدم انتظام وعدم استقرار مركز القرار. ثم كان يترنح ليس فقط بين التحكم الطبيعي والضغط على نفسه أكثر فأكثر نحو الداخل، وبالتالي نحو حنّة، عن طريق تقارب جسدي، مع اتصال جسدي حتى ولأول مرة الحرارة شبه البشرية الهائلة والمدهشة التي انبثقت منها- ثم، كما قلنا، ترنح ليس فقط جسديًا بين جانبه الأيسر، ذا درجة الحرارة الأعلى والأكثر أمانًا، وجانبه الأيمن ـ الأكثر خطورة وأبرد ـ ، كان هناك أيضًا خلل عقلي ونفسي. من الواضح أن ماريوش شعر، مرتين على الأقل، برغبة في التخلي، وترك يد حنّة ورمي نفسه من أعلى نحو أسفل. وكان خائفًا جدًا من رمي نفسه من الأعلى الي الأسفل ـ شيء بداخله، كانت هناك آلية تدفعه للقيام بذلك ـ لدرجة أن مثل هذا الموقف أدى إلى صراع، غير مرئي لأي شخص يشاهد ذلك المشهد، ولكنه حقيقي وملموس تمامًا، بين ما تدفعه اليه عضلاته بكل قوة، سعياً للحد من نوع من عدم المرونة العضلية ـ لا لن أفعل ذلك! ـ وبين ما تدفعه اليه إرادته الغير قابلة للتفسير ـ التي بالتأكيد من الداخل، تدفعه وتكرر، مثل الأشرار، أسوأ حوريات البحر، الق بنفسك الآن، اقفز!

أخذ ماريوش نفساً عميقاً ـ مرتين، ثلاث، أربع مرات ـ وركز على حركة القدمين، وفكر فيها بطريقة تفصيلية لدرجة انه رأي صورة الأصابع بداخل عقله، وباطن القدمين، والأظافر نفسها؛ وبالتالي، بالتركيز على أدنى نقطة في جسده، على قوائمه، صعد ماريوش، خطوة بخطوة، دون وعي، يضغط بقوة على يد حنّة، ما يجب أن تفهمه على أنه حركة أخرى أكثر حماية من جانب ماريوش، يتوجب عليها فهم الامر على هذا النحو. ومع ذلك، ما حدث هناك كان عكس ذلك تمامًا ـ ماريوش، نعم، لقد حمى نفسه، وجد نقطة هروب، فنية، فيما يبدو، في نهاية المطاف، لا يستطيع حماية نفسه، لقد وُلِد على أنه أبعد ما يكون عن وظيفة الحماية؛ حنّة وماريوش، كلاهما دون فهم أي شيء مما حدث، تمكنوا ـ إنجازًا بلا شك ـ من الوصول إلى القمة، أخيرًا، إلى الطابق الرابع، حيث شعروا، وكأنهم كشخص قضى عدة أسابيع في الغابة ثم وصل إلى الحضر، على الفور، على الرغم من أنه لا يزال هناك بضع خطوات يجب قطعها، كانت في رؤية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الضوء الكهربائي عزاء لهم. ثم رفع ماريوش رأسه هناك مضاء بضوء أصفر باهت، كما لو أن اسم الله قد انكشف له فجأة، هناك، في الأعلى، مكتوباً بالأبجدية الرومانية، قرأ: *تحف الفضيلة*. ود أيضًا أن يقول: إنها هنا ـ لكن صوته لم يخرج.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

مقابلة فيتريوس الأثري

أمضى ماريوش دقائق طويلة جالسًا على كرسي قدمه له فيتريوس ـ الأثري الذي طالما ما استمع اليه يتحدث عدة مرات. وصف اليه ذلك الشعور بالدوار الذي عانى منه، وأوضح فيتريوس أن هذا أمراً طبيعيًا وأن قلة الضوء أو حتى قرب الظلام خلال إحدى الرحلات على درجات السلم بين طابقين زاد من الشعور بالدوار. قال فيتريوس وهو يضع له كوبًا من ماء السكر في يده، في الظلام نشعر بأننا أكثر ارتفاعًا، وأن السقوط أكبر والجاذبية أقوى.

قال فيتريوس وهو يضحك بتعاطف مع حنّة، يجب أن تعتني بأبيك، يا فتاة.

ود ماريوش لو أخبره أنه ليس والد الفتاة، لكنه كان لا يزال يلهث ـ وما هي أهمية ذكر ذلك؟ أوشكت حنّة على التعافي بشكل ملحوظ من مجهود التسلق. ومع ذلك، يجب أن يقال إن حالة الإرهاق التي يعاني منها ماريوش لم تكن بسبب المجهود البدني الفعلي، ولكن بسبب القلق الناجم عن الدوار.

ابتسم ماريوش أخيرًا.

كان فيتريوس رجلاً قوي البنية ذا لحية صغيرة ـ تذكرنا جسديًا بتصوير دون كيشوت؛ نعم، كان هذا هو بالضبط ـ فكر ماريوش ـ لقد تسلقنا كثيرًا، في الظلام وبصعوبة كبيرة، كل ذلك بسبب رغيتنا في رؤية دون كيشوت. لا يجب أن يكون الوصول الي تلك الرغبة من السهولة بمكان، فكر بإيجابية، وها قد تعافي تقريبًا.

قال فيتريوس بأن صعوبة الوصول إلى متجره تشعره بالسعادة. قال: «انظر، يصعد الى هنا فقط من يريد شيئًا حقًا. لا يوجد زبون يأتي إلى هنا ولا يترك نقودًا» ـ ضحك ـ «حتى لو كان ذلك بدافع التفاني، مثل شخص يترك المال في صندوق صدقات دير يقع في مكان مرتفع؛ الجميع يترك المال هنا. يأخذون قطعة واحدة على الأقل ولا يناقشون الأسعار. أتمنى أن تفعل الشيء نفسه. وابتسم مرة أخرى. هل لديك المال؟»

ابتسم ماريوش وأومأ برأسه إيجابًا، لا داعي للقلق، فلديه مال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

دون كيشوت

قال ماريوش: «عزيزي دون كيشوت»، فابتسم فيتريوس بدوره، ثم تابع ماريوش «هل تعلم، أخرج شيئًا من جيبه، إلى أي كائن قديم ينتمي هذا؟ وقام بفك الورقة التي لف بها القطعة المعدنية، ثم سلمها إلى أكثر نسخة مادية مثالية من دون كيشوت، فيتريوس الأثري. التقط فيتريوس القطعة ونظر إليها في صمت وقلبها بيده. لقد كان عنصرًا وجده ماريوش في جيب حنة في وقت سابق من ذلك اليوم حيث اتخذه كدليل. في الجزء السفلي كان مكتوبًا: برلين. بدا وكأنه ميزان صغير، لكنه لم يكن كذلك. «هل يمكنك التعرف على هذا الشيء؟» ظل فيتريوس صامتًا لعدة ثوان، مما أزعج ماريوش، الذي شعر في لحظة، في الألف من الثانية، بكراهية وحشية لذلك الرجل الذي ظل صامتًا كشخص يمارس السلطة التي يملكها أمام شخص لا يملكها. كرهه لمجرد عدم قوله بضع كلمات مبتذلة، أو عبارة، أو حتى كلمة أو كلمتين غير متصلتين لا معنى لهما، على الأقل كرهه في تلك اللحظة من الثانية، وندم على الفور على التبسم له ومناداته بالسيد كيشوت ـ مظهر متهور وسريع للغاية للتقارب الذي من الواضح انه لن يتواجد بين أولئك الذين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه لأول مرة. ولكن، تمامًا كما ظهر، في جزء من الثانية، تلاشى ذلك الشعور بالكراهية فورًا، وعلى الرغم من أن الكلمات التي سمعها كانت تقريبًا غير منطقية (لا أعرف ـ قال فيتريوس ذلك فقط، لا أتعرف عليه...)، عاد الأثري ليحتل مرة أخرى، في نظر ماريوش، فضولًا متزايدًا، انه دون كيشوت، مجنون بكل شيء قديم، مع متجر في الطابق الرابع من مبنى مهجور، وقد افترض ذلك الموقع الجغرافي ليس فقط على أنه استراتيجي وفعال من الناحية التجارية، بل حتى واقعي ـ لا يضيع الوقت مع العملاء الفارغين، كما ذكر فيتريوس أولئك الذين يدخلون فقط للرؤية، مثل شخص يذهب، ليس إلى متجر ـ ممازحًا دون كيشوت ـ ، ولكن إلى السينما. قال فيتريوس بهذه الطريقة أفرغ وقتي للباقي. وكان الباقي عدد هائل. مهام متعددة تراوحت بين دراسة الكتب القديمة التي نسخ فيتريوس مقاطع منها في دفاتر ملاحظاته، إلى إصلاح القطع القديمة التي بها بعض العيوب أو الأجزاء المتحللة. إحدى الغرف، في الجزء الخلفي من المحل، إلى اليسار، هي ورشة صغيرة، لا تزيد مساحتها عن عشرين مترًا مربعًا، ولكن بداخلها عدد هائل من الآلات الصغيرة ـ مخرطة، ماكينة لحام، مناشير، فرَش، إلخ. ـ ورشة عمل يمكن للمرء أن يخمن فيها، على طاولة خشبية كبيرة، وجود العديد من أنصاف الأعمال؛ وبهذه الطريقة وبسرعة، أدرك ماريوش مقدار المتعة التي عاشها فيتريوس بسبب دراساته وعمله في استعادة الأشياء القديمة وسلسلة من المهام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المختلفة ـ بعضها، حقًا، على درجة عالية من السخافة وغير مفهومة ـ أصبح من الواضح أن المتجر لم يكن أكثر من المظهر الخارجي المرئي لعالم ضخم بحيث يقبع في مؤخرته. فيتريوس ـ الذي تم فهمه بعد فترة وجيزة، عندما ازدادت الألفة بالفعل بين الثلاثة الذين تواجدوا هناك. هنا يقطن. في واحدة من الغرف التي هي خمس في المجموع ـ غرفة صغيرة جدًا؛ جميع الغرف صغيرة باستثناء منطقة المتجر، حيث تم عرض التحف. يوجد بها سرير صغير فقط وخزانة مشغولة من أعلى إلى أسفل بالكتب والأرفف مع المزيد من الكتب التي تحيط بالسرير تمامًا، كان الشيء الأكثر إثارة للدهشة، باختصار، هو حجم الغرفة، الذي لا يزيد عن خمسة أمتار مربعة. ـ أكبر قليلاً من طاولة العمل في الغرفة الأخرى، وعدم تناسب هذه المساحة عند مقارنتها بالعدد الهائل للكتب التي تتلاءم هناك. باستثناء بعض الملابس المتراكمة، لم يكن هناك شيء آخر، لم تكن هناك قطعة أخرى، منفضة سجائر، زجاج، قلم رصاص، لا شيء كان ماريوش على الأقل قد اكتشفه بعيونه الفعالة عادة ـ لا شيء سوى الكتب، صفوف مزدوجة من الكتب والأرفف التي لا تسع حتى لأصغر أطروحة عن الرقة؛ أرفف ممتلئة بفيضانات التي ذكّرت ماريوش بتلك الصورة لبضع لحظات، الجليد الذي يحتاج، في المجمد، إلى مساحة أكبر وبعد فتح الباب بالقوة، في الهواء الطلق بالفعل، لا يذوب، بل على العكس من ذلك، يظل صلبًا، ويستمر في النمو، ويتقدم ببطء شديد، كما لو كان حيوانًا أخرسًا وبصبر هائل، شيئًا فشيئًا، سيجبر صاحب الغرفة على المغادرة. هذا هو ما شعر به ماريوش بأنه قد أوشكت الكتب على إجبار فيتريوس في النهاية على الخروج ـ توجد هناك عدة أكوام من الكتب على الأرض وغطت الكتب تغطي كامل سطح السرير تقريبًا. من الواضح، قبل الذهاب إلى الفراش، توجب على فيتريوس، كي يستطيع النوم، أن يضع الكتب على الأرض ـ ربما بطريقة حذرة ومنظمة، لأنه على الرغم من هذا الالتباس، فقد تم الحفاظ على الكتب في حالة جيدة، دون تجاعيد مرئية.. وبدون أي علامة على سوء المعاملة.

لم ندخل الغرفة حقًا، لقد ألقينا نظرة خاطفة على الباب ـ أولاً أنا، ثم حنّة، التي ضحكت لفترة طويلة ووجدت كل هذا رائعًا، كان من المستحيل دخول الغرفة، كانت الأبعاد، في الواقع، جدًا صغيرة، والأرض، كما قلت سابقًا، مليئة بالكتب ـ التي لا يمكن لأحد أن يفكر في تجاوزها. لذلك كان فيتريوس يتسلق السرير مباشرة، كما أوضح لنا، تاركًا حذائه في الخارج، بعد إزالة بعض الكتب من أعلى غطاء السرير ووضعها على الأرض ـ فعل ذلك بقدميه ومعظم جسده خارج الغرفة، ويمد يده اليمنى، وبعد ذلك، وفقط بعد أن يكون السرير خاليًا، عندها يستفيد من نحافته المميزة ورشاقته التي احتفظ بها فيغوص هذا ليس المصطلح المناسب لفعلته لأنه يفعل ذلك ببطء شديد، على الرغم من أنه ربما لا يوجد مصطلح مناسب ـ فانه يغوص، كما يخبر عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسه، بعناية، في السرير، واضعًا يده اليمنى عليه أولاً، بعيدًا قدر الإمكان، ثم اليد اليسرى، ثم بقية الجسد، ركبة واحدة على السرير، عادة اليمنى، ثم الأخرى ـ ثم بالفعل يكون بالداخل، في الغرفة، وعلى السرير.

لقد انتابه شعور، كما أوضح لنا لاحقًا، كما لو يدخل نفقًا كل ليلة، وبالتأكيد كانت خفة حركته ومرونته الجسدية ترجع جزئيًا إلى تلك العادة، لسنوات عديدة حتى الآن، بسبب النوم بهذه الطريقة. مازحا فيتريوس قال، كان عليه أن يكون نحيفًا للغاية، وإلا فلن يتمكن من العيش هنا. من أجل النهوض من السرير، يتعين عليه عدم ملامسة أرضية الغرفة، يزحف فيتريوس أولاً على أردافه من الرأس إلى قدم السرير، ثم مرة أخرى باستخدام خفة الحركة غير المألوفة، يضع قدمًا واحدة على الأرض بخارج الغرفة. بشكل عام، كان يخرج بقدمه اليسرى أولاً، ثم يمسك بإطار الباب بكلتا يديه، ويرمي ثقله للأمام، ويطرد جسده بحدة خارج الغرفة، وهكذا كان طريقة قيامه من الفراش كل صباح، على حد تعبيره، يشعر كل مره ما لو انه قد سقط للتو، لأن القدم الثانية تسقط على الأرض بسرعة وتأثير قويين للغاية ـ وكان الإحساس بالاستيقاظ قافزاً، بالنسبة له، تقريبًا لا غنى عنه، على حد ذكره. يتعلق الأمر بمغادرة الغرفة ودخول اليوم بالفعل بحركة حازمة؛ لا توجد تهيئة، ولا مقدمات، كما قال، أدخل على الفور الغرف الأخرى مع التأثير القادم من خروجي من السرير. وتابع: «لا ألاحظ أبدًا أنني في مرحلة الإفاقة بعد الاستيقاظ، ألاحظ دائمًا أنني مستيقظ بالفعل، كما لو أنه لا توجد لحظة وسيطة أتيت فيها من النوم حيث أستعد لبدء حالة اليقظة والنشاط؛ بالنسبة لي، على العكس من ذلك، هناك لحظتان فقط: لحظة النشاط ولحظة النوم. أحب أن أنام، تابع، أنا لا أشكو من ذلك، انها أفضل احتياجاتنا التي فرضت علينا ـ غمغم ـ ، بل ربما الوحيدة. وبعد تلك الجملة، بين الهمهمة والسخرية، وضع فيتريوس يده على رقبة حنّة السميكة، وبتعاطف، كما لو كان يعتذر عن كثرة الكلام، بدأ بدغدغتها أولاً بسبابته، ثم ببقية الأصابع الأخرى. دغدغة فعالة للغاية لدرجة أنني في لحظة معينة، على الرغم من أنني كنت اعرف المغزى وراء تلك الدغدغات وأفهمه، كان على أن أطلب منه التوقف. كنت أعرف حنّة جيدًا بما يكفي لأدرك أن تطور تلك الضحكات قد لا يكون للأفضل.

لقد أصبح دون كيشوت صديقك ـ أخبرت حنّة لاحقًا أثناء محاولتي التقليل من حدة الضحك الذي بدأ يخرج عن السيطرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

اليد

أراد فيتريوس لاحقًا أن يرينا إحدى قطعه الأثرية. حقا كانت رائعة. أعجبتني تلك القطعة، أحببتها كثيرًا لدرجة أنني نسيت الباقي. كنا في الغرفة العملاقة التي كانت المتجر نفسه. توجد قطع في كل مكان. وبدت كل واحدة منها كالفصل الأول لرواية طويلة، ونادرة، وغريبة ومثيرة. كما لو كان الأمر كذلك، فكرت فيهم كعناوين لكتب ـ كما لو أن ما نراه ليس أكثر من أغلفة كتب بعناوينها، نوع من البقع، في هذه الحالة، مادية، ملموسة، كل من يراها تطرأ له فكرة الموضوع، دعنا نطرح الأمر على هذا النحو، الشيء إذا كان سلاحًا، أو آداه تم استخدامها في الماضي في المطبخ أو أداة يحملها الرجال إلى الميدان. ومع ذلك، من الواضح أنه لم تكن تلك الأشياء التي فتنته ـ اهتم ماريوش أكثر بالنظر الي تلك القطع على أنها بقايا رواية واحدة أو أكثر. لم يكن مهتمًا جدًا بالأشياء التي رآها، فبعضها، بلا شك، أشكال مبالغ فيها، كان أكثر اهتمامًا بالأيدي التي أحاطت، مددت، دفعت، وعشقت عن بعد كل واحدة من تلك القطع الأثرية. خلاف ذلك، في لحظة معينة، رأى ماريوش ذلك فقط ـ لقد رأى فقط ما لم يكن موجودًا، لاحظ، كمشاهد بسيط، نوعًا من رقصة الأيدي، رقصة لا نهاية لها من الأيدي التي لا تعد ولا تحصى. ـ كيف تأخذ هذا؟ كان السؤال الذي كرره ماريوش، مشيرًا إلى قطع ذات شكل غير عادي، وفي بعض الأحيان، من الواضح أن لها فائدة غير واضحة. للوهلة الأولى، من خلال النظر الي العديد من تلك التحف، انتابه شعور غريب بأنهم كانوا ينتمون إلى نوع بشري آخر كما لو أن التطور لم يكن تقنيًا فحسب، بل تطورت الكائنات الحية نفسها. بالنسبة لماريوش، بدا الأمر واضحاً أن يدين كيديه لا تستطيع التلاعب بهذه الأشياء ـ المتبلدة، كلها تقريبًا، للوهلة الأولى ـ أو القبيحة لمجرد أنها كانت غير مفهومة. بعض القطع، بالطبع، كانت أسلافًا حديثةً إلى حد ما لأشياء لا تزال مستخدمة في ذلك الوقت ـ ميزان ذا لون فضي غريب، على سبيل المثال، وفي هذه الحالة انتابه شعور كشعور طفل ينظر إلى صور جده: كانت هناك أشكال مادية. أوجه التشابه، البقايا الفسيولوجية التي قاومت من جيل لآخر. بداخل ماريوش، إذن، وبغض النظر عن القلق من أن تكسر حنّة شيئًا ما بحركة خرقاء، هناك جهد عقلي منحه الشعور بمتعة واضحة، جهدًا عقليًا مركزًا على ما يمكن أن تفعله تلك الأيدي محاطة بكل تلك القطع، كما قيل. والشيء الأكثر وضوحًا، والذي كان دليلاً على تقلص الإنسان، هو أن كل تلك الأشياء التي كانت تحيط بها يتم التلاعب بها، ويتم تشغيلها، وتفعيلها، ودفعها، وإمساكها بواسطة الأيدي فقط. وقد أدى ذلك إلى الإحساس بأن الجنس البشري كان خاليًا من أي جهاز أو عضو كالأرجل، أو الأقدام، أو الجذوع، أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرأس، ويبدو أن كل تلك الأجزاء تؤدي ببساطة وظيفة حمل اليدين، موجودة فقط حتى لا تظل الأيدي وحيدة، مهجورة. كان هذا هو السبب الذي جعل ماريوش يشعر بسرور وبارتياح غير مناسب تقريبًا، بحيث لا يمكن لأحد أن يتفهمه عند طرحه عليه، فقد لاحظ إحدى آثار فيتريوس من بين مئات القطع: بعض الدواسات، بعض الدواسات غير العادية التي استخدمت لتشغيل ماكينة الخياطة. بعد بضع دقائق، أصبحت نظرة ماريوش أكثر تخصصًا، معيراً كامل انتباهه فقط لبعض الأشياء دون الأخرى. يشبه إلى حد ما، ما يحدث عندما يتكيف البصر مع الظلام ـ البصر الذي يبدو للوهلة الأولى أعمى، ولكنه، شيئًا فشيئًا، يستعيد القدرة على الرؤية، على تمييز كائن عن آخر في الفضاء، على إدراك وجود شخص ما في المقدمة والآخر في الخلف، واحد إلى اليسار، والآخر إلى اليمين. وهكذا، على الرغم من الضوء الشديد الذي يغمر المتجر بأكمله، شعر ماريوش أن عينيه، بعد فترة قبعتا في ظلام دامس، لم يرَ سوى عنصر واحد ـ الأشياء المصنوعة كعامل مساعد للأيدي ـ أصبحت أكثر قتامة...، وبعد ذلك بدقائق، أصبحت مثل كلاب الصيد في البحث عن أشياء ذات طبيعة أخرى. وبدأت تظهر هذه. بعد أن استقرت نظرته على الدواسات، قفزت إلى جسم ضخم، قديم يبدوا كالمجهر. وبعد هذا الشيء الذي يستخدم للعيون رأى قطعة أخرى للآذان، هاتفًا مستطيل الشكل غريبًا؛ ثم بعض علب البودرة ـ ماذا يكون ذلك؟ ـ لابد وأنه شيء يستهدف بشكل واضح حاسة الشم لدى الإنسان. الآن كانت نظرته تقفز، وبدلاً من التقدم بقدميه من حجر إلى حجر حتى لا يضيع بين القطع، استقر بصره، مع هذه القفزات، على القطع الأكثر غرابة، دون وجود شبح الأيدي من حوله. على الرغم من ذلك، إذا كان بُعد كل عضو بشري يعتمد على عدد القطع المتواجدة منه في تلك اللحظة، على سبيل المثال، لتكوينه، فسيكون الإنسان وحشاً: مصنوعًا من أيدي عملاقة، ضخمة، مسيطرة، أيادي تتحول الي وجه والجزء الداخلي من الشخص لا يستطيع المرء التوقف عن النظر اليه، والبقية الباقية، العينين، الرأس، الجذع ستكون مجرد نقاط من شأنها أن تشير إلى وجود بعيد. ثم، ماريوش ـ وحقيقة أنه في تلك اللحظة صافحت حنّة يده بقوة كما فعلت مرات عديدة، ناقلة حرارة جسدها إليه، ربما كان لها أيضًا تأثير على ذلك ـ تذكر موقف حدث له منذ سنوات، موقف أنه حتى اليوم، في بعض الأحيان، يتسلل إلى كوابيسه. في مقهى به طاولات خارجية، جلس ماريوش يخدمه شاب، ذو مظهر ممتاز، وسيم، لكنه ألمح على الفور إلى احتمالية انعدام الأمن بسبب إيماءاته الأولى التي وضعت ماريوش على أهبة الاستعداد. سرعان ما أدرك أن النادل كان يحاول القيام بكل شيء بيد واحدة مكتفيًا بإبقاء يده اليسرى قريبة من جذعه، وبالتالي منعها من اتخاذ أي إجراء. في المرة الأولى التي رأى فيها ماريوش اليد بأي شكل من الأشكال على الترابيزة، لم يسمح لنفسه بالقفز إلى الاستنتاجات ـ كانت اليد موجودة أسفل قطعة القماش الممسك بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومع ذلك، شعر على الفور أن شيئًا ما ليس طبيعيًا.

على الرغم من أن الرؤية لم تكن بالقدر الكاف، فقد استقبل نوع من الطاقة المزعجة من جهته، من أسفل الفوطة، طاقة لم يستطع ماريوش مقاومتها. وبدأت نظرته، في تلك الثواني القليلة، وبالتركيز على هدف محدد ـ ألا وهو فهم ما يحدث هناك، تحت قطعة القماش. من الواضح أن الأمر لم يكن يتعلق بالحدوث، ولم يكن هناك شيء يحدث، في الواقع لم يتم فعل أي شيء في تلك اللحظة، ولكن كان هناك شيء ما، وما كان هناك أصبح واضحًا في الثواني التي تلت ذلك. ترك النادل قطعة القماش على المنضدة، بيده اليمنى وضع بعض الزجاجات والنظارات أمام العملاء وعلى بعد بضع سنتيمترات من هذا الإجراء، أبقى نفسه بجوار المنضدة حيث وضع قطعة القماش، ولكن الآن بشكل جانبي أكثر، كانت هناك يده اليسرى، والتي من تلك الزاوية، أظهرت كل وحشيتها. وما أرعب ماريوش أكثر من غيره، كما يتذكر جيدًا، هو أن الوحشية لم تكن نتيجة تشوه، ولا نتيجة لشيء غير صحيح، ولا لشيء معيب، ولا لشيء مفقود؛ على العكس من ذلك: كانت اليد مثالية، لها خمسة أصابع، والأصابع كانت متناسقة مع بعضها البعض ومع راحة اليد، ومع ذلك، كانت اليد عملاقة، ضخمة، ربما كانت بحجم اليد والنصف، وهذا النصف الزائد، على الرغم من أنه قد يبدو للوهلة الأولى غير مؤثر، إلا أنه ذا عواقب مرعبة للغاية. الرعب، وهذا ما يدور حوله الأمر، جاء تحديدًا من الانسجام الذي كان حوله، وأن كل شيء كان صحيحًا، وأن كل شيء كان في مكانه بحيث كان لهذا الرجل وجه وسيم وودود، وكان لديه جسم رياضي تقريبًا وثم، فجأة، تلك اليد اليسرى الضخمة، كما لو كانت يد عملاق مزروعة. عندما اجتمعت اليدان، عن طريق الصدفة، كان التباين بينهما رهيبًا ـ وكل الحركات السابقة لهذا الرجل، وكل حالة عدم الأمان التي نقلها من قبل، اكتسبت أخيرًا معناها الكامل لماريوش. إن وجوده بالكامل، بغض النظر عن مدى رتابة الأحداث أو غير اعتيادها، تتميز بهدف واحد: أن يعيش محاولًا إخفاء يده اليسرى قدر الإمكان. في تلك اللحظة، كان ماريوش، مثل كثيرين غيره، يحاول النظر إلى اليد بتكتم قدر الإمكان، محاولًا عدم السماح للرجل بالملاحظة، لكن من الواضح أن هذا الرجل كان يدرك لفترة طويلة وجود معاناته، حيثما يحل سوء حظه. عرفت تلك اليد الضخمة أنه كان يتم مراقبتها باستمرار.

وأخيرا فكر ماريوش، وعلى الرغم من أن الباقي طبيعي تمامًا، بل وحتى جميل، فقد تحول هذا الرجل إلى يد عملاقة؛ أن الرجل لن يخرج صورة يده من رأسه، سيموت وهو يفكر في اليد اليسرى العملاقة، وسيحضر مراسمه الجنائزية الأخيرة بينما يفكر في اليد العملاقة، سيدخل العالم الآخر، عالم الموتى، بينما لا يزال يحاول إخفاء اليد اليسرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

الإبرتان

قال فيتريوس: «هذه الساعة رائعة. انظرا، فاقتربنا. تمتمت حنّة بشيء غير مفهوم. كان ماريوش لا يزال يفكر في صورة الرجل ذو اليد العملاقة؛ في التابوت المفتوح، في المراسم الجنائزية، اليد اليمنى على الجذع واليد اليسرى مغطاة، كإشارة أخيرة للانتباه والحب من جانب المرأة أو الابنة. ـ هل رأيتم؟ قال فيتريوس، ناظراً الي عقارب الساعة. للوهلة الأولى كانت ساعة قديمة ومكسورة ذات عقرب واحد فقط. ـ من الواضح أن هذه الساعة كانت لديها عقربان، اثنان، إنه أمر لا لبس فيه. الدقيقة الأولى، عقرب الدقائق ما زال موجوداً، قد توقف تمامًا، ميت، لأن ما كان يجعله يعمل هنا قد توقف تماما ـ وادار فيتريوس الساعة يدويا عارضًا آلية عملها، لكن هنا بالخلف، انظر، إنه مثير للإعجاب: آلية عقرب الساعات، العقرب الذي لم يعد موجودًا، آليته لا تزال تعمل، لا يزال يدور، هل يمكنك رؤية ذلك؟ يا له من أمر مقلق. والحقيقة أننا في تلك اللحظة توقفنا عن الكلام. عم الصمت المكان، وحتى حنّة كانت صامتة، محدقة في ذهول، فينا نحن نحن أكثر من الساعة، تحاول فهم سبب صدمتنا. ما رأيته، وأنا أراقب باهتمام كامل، كان شيئًا أدركت على الفور أنه، مثل يد ذلك النادل العملاقة، أمر لن أنساه. استمرت آلية عقرب الساعات في الدوران، دائرًا بالسرعة الصحيحة، ثابت، في كلمة واحدة: كان يعمل، إنه حي. ومع ذلك، مسبب تلك الحياة الداخلية للساعة لم يكن في الخلف، الذي أخرجها للنور. مثل الرجال الذين، بعد سنوات عديدة من فقد ذراعهم، ما زالوا يشعرون بشبح تلك الذراع يتحرك في نفس المكان حيث لا يوجد شيء الآن، لم يكن هناك أي طرف يتحرك هناك أيضًا، على الرغم من بقاء الإرادة لجعله يتحرك. ظللنا صامتين لبضع لحظات، وأعيننا مثبتة، منومة مغناطيسيًا من خلال ذلك الجزء الصغير من الساعة الذي ظل يدور، بلا فائدة، دائمًا بنفس الإيقاع؛ كما لو أن تلك الحركة غير المجدية والمتواصلة كانت تنظر إلى ثلاثتهم ـ حنّة، فيتريوس نفسه، ماريوش ـ وتطلب المساعدة من كل واحد منهم؛ مثل شخص يغرق ولكنه لا يغرق نهائيًا ولا يحصل على مساعدة أيضًا، وهكذا بقي، كما اعتقد ماريوش، مع هذا الألم من كونه، إلى الأبد، يقضي عقوبة في الجحيم، دون توقف لحظة واحدة، على وشك الغرق. «أنا أبحث عن والدي»، قالت حنّة فجأة، قاطعة مداعبات ماريوش وفيتريوس. اعترت ماريوش حالة من الصمت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

النزول

غادر كل من ماريوش وحنة ـ ذلك المبنى المتداع. كان النزول، على الرغم من كل شيء، أقل إزعاجًا وكاد ماريوش أن ينسي الدوار، ربما لأن رأسه كان مليئًا بالصور ولا يزال مفتونًا بدون كيشوت.

احتفظ فيتريوس بالقطعة. أخبره أنه يتعين عليه فحصها أكثر، والتحدث مع بعض الناس لمعرفة ما هو الشيء الذي حملته حنة في جيبها يوم وجدها ماريوش.

طلب فيتريوس أن يمهله بضعة أيام.

هناك في المتجر، فيتريوس نفسه ـ والقطعة في يده.

سأل حنة نفس الشيء الذي سأله إياها ماريوش عدة مرات:

- هل أعطاك هذا والدك؟

فأجابت نعم، من والدها.

- ما اسم والدك؟ سأل فيتريوس، محاولًا أيضًا التسلل إلى دفاعات حنة.

- «لا أستطيع أن أقول الاسم. سيفقؤون عيني»، أجابت حنة.

قالتها عدة مرات، مبتسمةً، كما لو أنها تذكر شيئًا مضحكًا جدًا أو كما لو تخبرهم بإحدى النكات.

قرر ماريوش ترك القطعة لفيتريوس. لقد وثق به. لقد اتفقا على ان يعود إلى هناك في غضون أيام قليلة. على الرغم من أن ذلك يعني احتمالية اضطراره إلى صعود تلك السلالم مرة أخرى، في الظلام، دون وجود جدار جانبي، كانت تزعجه الفكرة، إلا أن فكرة العودة كانت تسعده. كانت طريقة لقضاء المزيد من الوقت مع دون كيشوت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7

الصراخ

مهمة العودة إلى الفندق في ذلك اليوم تمت في هدوء ذلك الهدوء الذي لا يمكن أن يوفره سوى الإرهاق المرضي. كل ما سبب له صدمه في السابق في ذلك الفندق، يبدو الآن طبيعيًا، حتى أنه غير ملحوظ. استقبلتهم مالكته السمينة بابتسامة، معطية إياهم مفتاح الغرفة، مع الأخذ في الاعتبار شكوكهم، قررت مرافقتهم للغرفة. حقًا، لم يكن التوجه سهلا. على الأقل لم يفهم ماريوش بعد الحكمة من طريقة توزيع الغرف. مروا عبر الممرات ورؤوسهم منحنية. نظر ماريوش إلى الأسماء بطرف عينه، لكنه كان متعبًا للغاية ورأسه لا يزال في الطابق الرابع الذي يحوي الآثار لدرجة أنه لم يستطع رؤية أي شيء وراء هذه الكلمات، لقد رآها مجموعة من الحروف التي عن طريق الصدفة، اجتمعوا واحدًا تلو الآخر جنبًا إلى جنب (كلقاء حدث عن طريق الصدفة بين شخصين على ناصية أحد الشوارع). كانت هناك، على الألواح المعدنية، الأحرف: ت، ر، ي، ب ولينكا، وبعض الأحرف من الأبجدية الرومانية، اختراع عظيم، وكان الاثنان بالفعل أمام غرفتهما، بقيادة المالكة التي، بتكتم، ودعتهم بالفعل.

فتح ماريوش الباب، أدار المقبض إلى اليسار، ألقى نظرة خاطفة على الحروف الأخيرة، ويتز، ايماءة برأسه لحنّة حتى تدخل، وبعد ذلك، بمجرد الدخول، قام بما يجب القيام به عادة: من تشغيل الأضواء، وغلق الباب من الداخل بالمزلاج، ثم حرك سريره الصغير قليلاً، جعله مستقيماً، وجهز حنّة محاولاً إقناعها بتنظيف أسنانها، والاستحمام، ثم النوم، نعم، لقد كان ماريوش متعبًا. وفي اليوم التالي، وأيام أخرى، عليه أن يستمر في البحث عن والد حنّة؛ في بعض الأحيان اعتقد ماريوش بعدم وجوده، وأنهم يبحثون عن شخص من اختراع حنّة ـ ولكن عليه أن يستمر في البحث، فهذا منطقي تمامًا؛ لا يستطيع الاستمرار معها، فهي فتاة مصابة بالترايسومي 21؛ ماريوش ليس طبيبًا، إنه يعرف بالفعل بعض الأشياء، لقد قرأ، إنه يكتسب الخبرة من الممارسة، حتى أنه شهد تقدم حنّة، لكن هذا ليس ما يسعى اليه، لديه حياة مختلفة، لا علاقة له بها، يجب عليه أن يتولى شئونه الخاصة ـ التخفي قدر الإمكان، متابعة الأخبار، الاستماع إلى الراديو، ومعرفة ما إذا كان بحاجة إلى تغيير المدينة، إذا ما أصبح وجوب هروبه جليًا، إذا ما كان بحاجة إلى الجري، إذا أوجب الأمر عليه الاختباء، والابتعاد عن بعض الأماكن، والابتعاد عن بعض المخارج؛ باختصار، هناك قضايا يجب أن يحلها بمفرده وتلك الفتاة لن تتمكن من مساعدته لأنها لا تفهم شيئًا، ولن تفهم شيئًا مما سيشرحه لها ـ لأن هناك شيئًا واحدًا يسيطر عليها تمامًا، وهو التمسك بوجوده، كشخص يتشبث بذراعيه او كشخص يحمل آخر علي ظهره، تاركًا إياه عديم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفائدة وبدون مقاومة: تضع إعاقتها بين ذراعيه، تضغط بها علي ظهره، مثل ذلك النادل، ذا اليد اليسرى الهائلة (فيما بعد علمت أن هذا المرض يسمى بالعملقة، على وجه التحديد. يمكن أن يحدث في أي عضو، كان أكثر طبيعية من وقوعه في الرقبة أو حتى في الأذنين، ولكن في هذه الحالة، كان في اليد) أيضًا بالنسبة إلى حنّة، شخص ما، شيء ما، وقت ما، هو تشوه تمت دراسته جيدًا ومعروفًا للعلم، قد اختصر وجوده ليس في اليد اليسرى، كما هو الحال مع النادل، ولكن إلى شيء يصعب تحديده. كمن أراد الصراخ، لكن لا يحتوي جهازه التنفسي على الأحبال الصوتية، وبقي على هذا النحو لسنوات وسنوات، حتى الموت، مع هوان قدرته أحيانًا، جاء يبحث عنه، كي يأخذه إلى مكان. حيث سيكون لديه أخيرًا ما يكفي من الأحبال ليصرخ.

سأل ماريوش حنّة إذا كانت بخير

- قالت: نعم.

- تصبحين على خير، أجاب ماريوش.

- تُصبح على خير، أجابت حنّة.

ماريوش سعيدًا، فأطفأ النور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الخامس

الاسم

1

تصميم الفندق

لقد أمضوا معظم الأيام القليلة التالية في الفندق. استمتعت حنّة بالألعاب المنتشرة حول الطاولات في غرفة المعيشة ـ بطاقات، لعبة الداما، إلخ...

صاحبَت مالكة الفندق حنّة التي من الواضح أنها أحبت التواجد معها. دُعت المرأة رافائيلا، لديها مقدرة كبيرة على الصبر قاضية ساعات في لعب لعبة ورق غريبة بدا أن حنّة فقط هي التي تعرف قواعدها، والقواعد التي تتغير مع كل دور. ضحكت رافائيلا بصوت عالٍ على بعض تعابير ونكات حنّة، تحول زوجها اليهودي موبيوس، كما يعرف نفسه ـ هيكل عظمي على النقيض تماما من زوجته، الي كاتم أسراري؛ في تلك الليالي، تنتهي تلك المحادثات بيننا في بعض الأحيان عند منتصف الليل، توقيت متأخر جداً بالنسبة لحنّة بالنسبة إلى حنّة، التي كانت دائمًا ما تنام على أحد أرائك غرفة المعيشة حتى تبقى على مسافة قريبة من رافائيلا، كفرد من قوات حرس الحدود

لذلك، بعد أيام قليلة، لعبت حنّة دور كما لو كانت متبناه في الفندق، سواء من قبل رافائيلا، التي تولى دور المدافع، ومن قبل موبيوس، دائما عن بعد، مشاركًا زوجته غريزة الحماية.

اعتنى الزوجان مالكي الفندق بكل شيء. لم يكن هناك سوى مساعدة واحدة مدفوعة الأجر، التي كان يتحصل عليها ماريوش، بشكل بائس؛ المساعدة التي تقوم على تنظيف الغرف والحمامات، وفي أيام محددة، يجب أن تكون متباعدة جدًا، كما يجب أن يقال، تقوم بتغيير الملاءات وترتيب الأسرة. الفندق خالٍ من كل شيء. أدوات النظافة، على سبيل المثال، التي تستخدمها المساعدة في التنظيف، كانت بعيدة جدًا عن اللون الأصلي لمثيلاتها من تلك المنتجات. لقد تم تخفيف لونها بسبب الماء، والبقايا التي احتفظت بها من لونها الأصلي، البني الباهت، الأخضر الباهت، كشفت فقط عن الجشع الذي ربما حول منتجًا واحدًا من من أدوات النظافة الي ستة أو ثمانية.

لا يمكن أن يقال إن الفندق كان متسخًا، لأنه بالتأكيد لم يكن ـ كان هذا بسبب الاهتمام المستمر، والنظافة، والموقفان اللذان شهدهما ماريوش، واللذان احتويا على إهانات رافائيلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمساعدة المسكينة من قلة النظافة. وهكذا، كان التنظيف أحد هواجس رافائيلا، ولكن كان لابد من تحقيقه بأقل قدر من الوسائل، على الأقل بأقل قدر من الوسائل التي تتطلب نفقات. النظافة التي بأقل قدر من الأدوات ستنتهي في ثوان احتاجت من المساعدة على عدة دقائق، وبجهد.

على الرغم من أن بعض التفاصيل من هذا النوع قد نفرت ماريوش، إلا أنه كان من الواضح أن وجود حنة قد كسر سلسلة الروتين في حياة الزوجين، معاملين حنة معاملة الأمراء مقدمين لها كل شيء من حلويات إلى المشروبات الغازية، فقد تقبلوا أدنى رغبتها وأشبعوها بسرعة. عاملوها كما لو يعاملون شخصًا مهمًا ـ مدير مؤسسة أو أكبر فرد في العائلة وأكثرها احترامًا، باختصار، كان هناك بيان واضح ـ والذي في سياق آخر كان سيصنف على أنه عامل.

بطبيعة الحال، في إحدى تلك الليالي، شرحت للزوجين أنني لست والد حنة وأخبرتهما كيف وجدتها وما الذي كنت أحاول فعله للتعرف على والدها.

أخبرتهم عن فيتريوس، دون كيشوت، الأثري، لكن يبدو أنهم لم يعرفوه. كانوا مستعدين لمساعدتي، لكن في الواقع لم يتمكنوا من فعل أي شيء وكانت حياتهم مختلفة أيضًا، كان هذا الفندق هو حياتهم.

- «ألاحظ عدم وجود اسم للفندق»، قلت لمويبيوس في لحظة أكثر استرخاءً.

- أجاب: «لا، ليس لديه، هكذا هي الأمور».

في إحدى الليالي، بعد العشاء ـ عادة ما نتناول العشاء هناك، وكان هذا الأمر عمليًا أكثر ـ فهمت أخيرًا تنظيم الفندق.

كنت قد أعربت بالفعل عن حيرتي عدة مرات، وفي ذلك اليوم دعاني موبيوس إلى مكتبه، الغرفة التي كانت مغلقة في السابق والتي كان للزوجين فقط إمكانية الوصول إليها. ثم، مع إغلاق الباب، فتح موبيوس درجًا وأخرج شيئًا ملفوفًا، ثم فتحه على الطاولة. كانت خريطة. في البداية لم أتمكن حتى من تحديد الجغرافيا العامة، لكنني على الفور رأيت أنها كانت أوروبا، وبعد ذلك، شيئًا فشيئًا، تم وضع علامة على النقاط الصغيرة والكلمات المنقوشة عليها أصبحت واضحة. كانت عبارة عن خريطة تم فيها تمييز معسكرات الاعتقال النازية.

- قال موبيوس: «ها هي كل المعسكرات».

- وتابع: «والآن، انظر، من فضلك، إلى طوابق الفندق». وأدار وجهه نحو مخطط أرضية الفندق الذي كان مثبتًا على حائط المكتب والذي كان مطابقًا لما رأيته لأول مرة، مرتبكًا وخائفًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوم وصولي، خلف مكتب الاستقبال.

كان مخطط الفندق، به مليمترًا أكثر، أو أقل مليمترًا، نسخة من الهيكل الهندسي الذي تم تشكيله بواسطة النقاط التي أشارت الي المعتقلات على الخريطة. وبالضبط في الموضع النسبي لكل معتقل تقع الغرفة التي تحمل الاسم نفسه. في النهاية فهمت تنظيم الغرف. لم تكن هناك إشارة إلى الترتيب الأبجدي، ولا علاقة بحجم أو عدد الأسرة في الداخل ـ كانت العلاقة علاقة جغرافية: كانت الغرفة المسماة اربيتسدورف بين بيرغن بيلسن ورافنسبروك(6)، نحو الداخل قليلاً، كما يمكن رؤيتها على الخريطة من المعتقلات. كان الفندق صغيرًا، حقاً، صغيرًا، مصغرًا، لكنه كان، من الناحية النسبية، نسخة دقيقة من جغرافيا معسكرات الاعتقال.

قال موبيوس، متحدثا عن الفندق، «لقد شيده من الألف إلى الياء، مهندس معماري صديق لنا، وهو يهودي الديانة». ـ تابع موبيوس مشيراً الي الورقة الملصق عليها الخريطة، وموجهاً إلى النقاط التي تشير الي مكان كل معسكر، «انظر، إذا وصلنا كل نقطة من هذه النقاط، حيث يقع المعسكر، مع رسم خط، فسنحصل على شكل هندسي».

ثم، بحركة دماغية غير حادة، وأحيانًا مرتجفة (حركة مرئية نسبياً، على الرغم من كل شيء، على الرغم من محاولته إخفاء، عاطفة معينة)، وصل بين النقاط المختلفة.

قال وهو يرفع رأسه وينظر إليّ باهتمام: «انظر»، حصلنا على شكل هندسي. هل تعلم أن هذا الشكل الهندسي له اسم؟ لم يكن موجودًا قبلًا، لكننا أطلقنا عليه اسمًا، كان الشكل يتطلب ذلك. كيف لا يكون من الممكن إطلاق تسمية عليه؟ إنه ليس مربعًا ولا محيطًا، باختصار، إنه ليس أي شكل هندسي معروف، لكن هذا ليس سببًا لنا للبقاء صامتين، أليس كذلك؟ حسنًا، لقد أعطيت أنا وزوجتي هذا الشكل الهندسي الأسود اسمًا، اسمح لي أن أصفه بهذا الشكل. وكان الاسم الذي أطلقناه على الفندق، نعم لقد أطلقنا عليه اسمًا. هل تعلم ما اسم هذا الشكل الهندسي؟ هل حقا تريد أن تعرف؟

Telegram: @mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السادس

الزيارة المفاجئة

1

زيارة جديدة لفيتريوس

قمنا بإعادة زيارة فيتريوس. لقد مرت أيام كافية وظننت أنه ربما لديه بعض الأخبار لنا. في الواقع، كان المتجر مغلقًا، وطرقنا الباب عدة مرات، لكن لم يرد أحد. ولم يكن هناك ضوضاء.

بعد نزهة قصيرة، للتعافي من الصعود والنزول، عدنا إلى الفندق.

في اليوم التالي عدت لوحدي. مكثت حنّة ـ اعتادت رافائيلا العناية بها بطريقة كبيرة، ويمكنه أن يذهب باطمئنان.

يعتبر الصعود إلى الطابق الرابع، كما هو الحال دائمًا، اختبارًا جسديًا. في الواقع، كان يعاني من الدوار. من الناحية الموضوعية ثبتت إصابته مرضًا أو ضعفًا أو شيئًا مشابهًا، وكانت النتيجة الواضحة أنه عانى من الدوار، اكتشافًا آخر يجب أن يضيفه إلى قائمة الديون التي عليه لفيتريوس. لم يكن طبيبًا، ولكن فقط من خلال موقع متجره، تمكن دون كيشوت، دون أن ينبس ببنت شفة، من تشخيص إصابتي بمرض ما.

ومع ذلك، كان الصعود بمفردي أسهل بكثير. بدون حنّة تمكنت من الاتكاء على الحائط. لم يكن هناك سوى جسدي وهذا أعطاني شعوراً بالراحة؛ ومع ذلك، فإن حقيقة عدم وجود شخص ما بجانبي لأقلق عليه، حنّة في هذه الحالة، تسبب لي، في نفس الوقت، في الشعور بنوع من الغرابة، وشعور بضيق متناقض.

في الدرجات الأولى من الطابق العلوي، قدوم الضوء من أعلى بوضوح أنه، على عكس ما حدث في اليوم السابق، يشير إلى ان الجهد المبذول في ذلك اليوم ستتم مكافأته: كان محل فيتريوس للتحف مضيئا بالفعل: المتجر مفتوحًا، وفيتريوس متواجدًا بالمنزل. ورأيته هناك، وهو يقف على بعد أمتار قليلة من الباب، ويدعوني بابتسامة للدخول، الشعور الذي شعرت به يعتبر واحدًا من أفضل المشاعر في الآونة الأخيرة. في تلك اللحظة، كانت لدي رغبة سخيفة، مثل طفل، بشكل مثير للشفقة، أن أدعوه بأبي، وكنت مقتنعًا أنه لو فعلت ذلك، فإن دون كيشوت العجوز سيتفهم ذلك وسيستقبلني ليس كابن، بالطبع، ولكن كشخص على الرغم من قوته، إلا أنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مستمر في الهرب ولم يعد لديه أي مكان يشعر فيه بالراحة عدا ذلك المكان.

قلت له، وأنا ما زلت ألهث: «عالٍ جدًا، متجرك».

أجاب فيتريوس مبتسمًا بقول ما، ولكني كنت متعبًا جدًا فلم أفهم ما قال. جلست، مثل المرة السابقة، لأستعيد أنفاسي، بينما كان دون كيشوت، مثل شخص ينتظر شخصًا أبطأ، كان ينتظرني، متظاهرًا حتى لا أشعر بالسوء أو ألاحظ أنه يسلي نفسه بتغييرات صغيرة في أماكن بعض هؤلاء القطع: الآثار التي جعلتني، رجل ناضج بالفعل ـ بالتأكيد بالنسبة لشخص ما كان قد طعن في السن، هناك، في تلك الغرفة، أصغر فترة حياة لي. كما حدث لي منذ فترة طويلة، عندما كنت طفلاً أتسلل إلى حفلات البالغين بدون دعوة، فكرت، عندما ألقيت نظرة خاطفة على فيتريوس وبعض الأشياء من حولي: أنا محاط بأشخاص طاعنين في السن، تمامًا كما في الطفولة، جعلتني أشعر بأنني أقوى من محيطي، وبعد ذلك مباشرة، أضعف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

مهمة الأسرة (الإرث)

لم يكن لدى فيتريوس أي جديد يقدمه لي. في الواقع، ومما سبب لي خيبة الأمل، أصبح جليًا لي أنه لم يكن مهتمًا بالمشكلة.

قال فيتريوس إنه غاب ليومين، ولم يكن لديه سوى مرجع صاحب ساحة خردة، وهو صديق قديم له، كان يعرف، على حد قول فيتريوس، كل شيء عن أصل جميع الأشياء المعدنية في العالم. وأضاف أنه سيجري مزيدًا من التحقيق مع نفسه.

على الرغم من خيبة الأمل، قضيت فترة الظهيرة بأكملها مع فيتريوس مرة أخرى. ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أراه فيها. حان الوقت لمغادرة تلك المدينة.

لقد فهم أننا يمكن أن نقضي فترة الظهيرة معًا وحاول هو الاستفادة من ذلك أيضًا. كان من الواضح أنه يحب صحبتي.

لقد صعد شخص واحد فقط إلى المتجر بعد ظهر ذلك اليوم. لم يخسره فيتريوس، لقد قام بعمله جيدًا ـ خرج الرجل محملاً بقطعتين، ودفع على الفور. ودعه فيتريوس، لقد كان زبونًا أحياناً ما يمر ـ لكنه سرعان ما أتي لمجالستي وجلس بجواري. كنا في ورشة العمل، في منتصف الأدوات والعمل جار، وأخذ فيتريوس واحدة من حافظات الملفات المختلفة الموضوعة هناك على الرف وكان يستعد ليشرح لي ماهية هذا الملف عندما قاطعه وصول ذلك العميل. الآن، حيث إن العمل انتهى، فاستأنف الشرح مرة أخرى.

قال: «إنها واحدة من الأشياء القليلة التي تركها والدي لي».

لاح على وجه فيتريوس، ومن إثارته أنه ربما يُري هذا لشخص ما لأول مرة.

ما هذا؟ حسنًا، الأمر بسيط: كانت أعدادًا وأرقامًا وأرقامًا. من النظرة الفاحصة الأولي كشفت على الفور أنها سلسلة من الأرقام ـ سلسلة من الأرقام الزوجية. في الصفحة الأولى، التي كنا قد طويناها بالفعل، صفحة قديمة واضحة، صفراء للغاية بالفعل، مكتوبة بخط ثابت، تاريخ (من قرن آخر على الأقل)؛ لقد كانت بداية، دعنا نقول، بداية أعمال، بداية شبه طفولية:

8، 6، 4، 2

ـ كان جدي الأكبر هو من بدأ هذا. أصبح تقليدًا عائليًا. حدث ذلك لجدي، ثم لأبي، والآن حيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمر إلي. تصفحت مجموعة كبيرة من الاوراق. كان يوجد:

157668، 157670، 157672، 157674، 157676، 157678، 157680، 157682، 157684، 157686، 157688، 157690، 157692، 157694، 157696، 157698، 157700، 157702، 157704، 157706، 157708، 157710، 157716، 157714 157718، 157720، 157722...

- «ما هذا؟» ـ سألت.

قال فيتريوس ضاحكًا: «إنه متنفسي جزئيًا، لكن إذا أردت، يمكن اعتباره هواية».

هذا هو المجلد الأول، أوضح لاحقًا، الجزء الأخير كتبه جدي بالفعل. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يقال إن من بدأ هذا، جدي الأكبر، كان أقل من فعل. إلى حد بعيد، هو الأكثر كسلاً، غمغم ضاحكًا.

من وقت لآخر، دون الإخلال بالتسلسل الذي لا نهاية له، يظهر بالجانب تاريخ ما. كل يوم، قبل استكمال التسلسل، يضعون التاريخ في الهامش. لذلك كان من السهل التحقق، كما أوضح فيتريوس، من الأيام الأكثر إنتاجية والأقل إنتاجية والأيام التي لم يُتابع فيها العمل ـ ما سبب انشغال هؤلاء الأشخاص تلك الأيام؟ قال فيتريوس مستمتعًا. ثم أوضح أنه هو نفسه كان بعيدًا عن استكمال بعمله كل يوم؛ في بعض الأيام لم يستطع، ونسي البعض الآخر، والبعض الآخر لم تكن لديه بالرغبة في ذلك، ومع ذلك، عاجلاً أم آجلاً، كان يتابع ما عليه مرة أخرى ـ إنه مثل عقد العائلة، انظر إليه بهذه الطريقة، هذا مبني، جيلاً بعد جيل، وقد قطعت الآن بالفعل مسافة كبيرةً.

جعلني فيتريوس أنظر إلى الرف حيث أتت خزانة الملفات الأولى. كان هناك ستة آخرين. كل مجلد يحتوي على مئات ومئات من الصفحات غير المرقمة، ولم تكن هناك حاجة، فالمسلسل نفسه لا يسمح بالتشويش حول ترتيب صفحة معينة.

قام فيتريوس بسحب خزانة ملفات أخرى.

هل تعلم في أي تاريخ مات جدي؟

كان فيتريوس يبحث في خزانة الملفات هذه عن صفحة معينة. وجدها ثم عرضها علي

9345678678،9345678676، 9345678680، 9345678682، 9345678684

وفي السطر الذي يلي هذا الرقم بالضبط، السطر الذي أثار في داخلي تمزقًا غريبًا، ومفاجئًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وشبه عنيف تقريبًا، وعلى نفس الورقة، حيث ظهر هنا في عالم الارقام اسم ما. قال فيتريوس إنه اسم جدي، ثم أخبرني بأن الاسم مكتوب بالفعل بخط يد والده، بالإضافة إلى التاريخ، قبل الاسم، تاريخ وفاة جدي؛ ثم تم استئناف التسلسل، على نفس السطر، حيث تم قطعه بالضبط

9345678686، 9345678688، 9345678690، 9345678692،

قال فيتريوس، في نفس تاريخ وفاة جدي ـ تابع والدي التسجيل في نفس اليوم الذي مات فيه جدي بالضبط.

عم الصمت قليلا ثم تابع فيتريوس: تناولته مرة أخرى بعد ثمانية أيام من وفاة والدي. أعترف أنني لم أفكر في الأمر، لم أتذكره، أو تذكرته، ولكن في نفس اليوم والأيام التالية اعتقدت أنه ليس أمراً منطقيًا، أنه لأمر غبي. كنت أعرف بالضبط أين توجد خزائن الملفات، لم يكن هذا هو الهدف. لقد كانت في الواقع محاولة لإيجاد تفسير لها.

كان ذلك الأسبوع بين وفاة والدي وإعادة التسجيل أمرًا ضروريًا؛ وجدت أنه من السخف عدم الاستمرار، هل تفهم ذلك؟ ببساطة الامر لم يتعد كونه: عدم وجود السبب الذي يمنعني من الاستمرار، سيتسم الأمر بالأنانية. إن السبب الوحيد للتوقف هو ذلك الذي سيظهر في غضون بضعة سنوات، وهو الأكثر طبيعية على الإطلاق. ليس لدي أطفال، لن أنجبهم، إنه بعيد جدًا عن مشاريعي، كما يمكنك أن تتخيل، ووفقًا للمؤشرات والدلالات المختلفة، فأنا بشر ـ وبالتالي، سينتهي الأمر من تلقاء نفسه، بطبيعة الحال.

- «أعترف، أعترف أنني أشعر بالفضول لمعرفة ما سيكون الرقم الأخير، وأين سينتهي. أكتب دائمًا معتقدًا أنني في منتصف المهمة، دائمًا في المنتصف، وبالتالي، فإن آخر عدد كتبته في ذلك اليوم لن يكون حقًا الأخير، لكن من المستحيل معرفة ذلك». أخبرني ذلك وهو يفتح خزانة الملفات الحالية، والتي تميزت باختلاف لون الورقة ـ

قال فيتريوس، وهو يفتح آخر صفحة مكتوبة من خزانة الملفات، «انظر، على سبيل المثال، لقد أنجزت عملي اليوم.»

ونعم، لقد كانت حقيقة: في الصفحة السابقة كان تاريخ ذلك اليوم، ثم كانت الأرقام ضخمة بالفعل؛ من حيث الحجم كانوا بالفعل واضحين على طول الصفحة، واستمروا على هذا النحو في السطور التالية. انتابني الشعور بأنني امام شخص مجنون، مجنون تمامًا

100002340786566642009822300009288887711369987444506463 18،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

10000234078656664200982230000928888771136998744450646320،
10000234078656664200982230000928888771136998744450646322

تابع فيتريوس: «أحيانًا أسجل الكثير، بينما في أيام أخرى، القليل، هذا يعتمد.» ثم قال فيتريوس عند ملاحظته لملامحي، «لكن من النادر أن أترك يومًا فارغًا... لا تخف ولا تعتقد أنني مجنون. هذا أيضًا عكس كونك مجنونًا. كان ما قاله...

لكنه لم يضف جديداً، التزم الصمت. في غضون ذلك، نظرت إلى تلك الأرقام، المتوحشة، البعيدة، بالنسبة لي، عن الفهم العقلاني: لقد كانت بالفعل شيئًا آخر، ترقيمًا غير بشري، هناك شيء غير مرئي؛ كما لو أن الأرقام، ذات الترتيب المعين العظيم، أصبحت غير مرئية تمامًا بالنسبة لي. كانت كبيرة لدرجة أنني لم أتمكن من رؤيتها. لأنه إذا كان بإمكاني رؤيتهم من الناحية الفسيولوجية، كما في تلك اللحظة رأيت هذا الرقم الهائل،

10000234078656664200982230000928888771136998744450646322

فلم أستطع فهمهم، استيعابهم، وبالتالي، كانت رؤيتي لهذا الرقم، في تلك اللحظة، رؤية محيطية ومصطنعة. هذا ما اعتقدته: اصطناعي، وليس طبيعي، وليس بشريًا، شيء لم يُعد لشخص مثلي

10000234078656664200982230000928888771136998744450646322

نظرت إلى فيتريوس، طالبًا تفسيرًا، ربما أبحث عن مساعدة، لكن ما رأيته في عينيه هو التحديق في الحائط الذي وضعني كما لو كنت خارج الحوار. كما لو كنت أحاول أن أفهم شيئًا كان من المستحيل فهمه: علاقة عائلية، علاقة دم.

قال فيتريوس فجأة، كما لو أنه وجد أخيرًا ما يعبر به، «لا يوجد هدف في سباق التسلسل، انه سباق المقاومة. فقط يتعلق بالمقاومة» ـ ثم قال باصرار، «ليس هناك ما هو أكثر من ذلك».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

الاستمرار

شرح لي فيتريوس الاهتمام الذي أعاره جده ووالده من بعده والآن هو نفسه، حتى لا يكون هناك خطأ واحد في تسجيل الأرقام، حتى يتابع المسلسل ترتيبه، دون أي صدمة، حتى لا يُحيد أي خطأ بشري هذا القطار عن مساره ـ كما أسماه فيتريوس ـ جسديًا وعقليًا؛ بحيث، على سبيل المثال، لا يسبق رقم منتهي بالرقم 4 رقم ينتهي بالرقم 8 ـ «أتدرك مقدار الاهتمام المطلوب! افهمني»، قال لي فيتريوس، من الواضح أنني لم أتحقق من الأرقام بشكل عكسي، واحدًا تلو الآخر، لكن في بعض الأحيان، كما لو كانت لعبة، كما لو كنت مفاجأة لك، أفتح، بشكل عشوائي، إحدى خزائن الملفات القديمة ولم أر أي خطأ من قبل، ولم يكن الرقم التالي مختلفًا أبدًا عما يجب أن يكون ـ لم أر أي خطأ، هل يمكنك أن تفهم؟ أهم شيء، في الوقت الذي أواصل فيه التسجيل، هو ألا أفكر في أي شيء آخر؛ أعيره اهتمامًا مطلق، لا يوجد شيء آخر، انحراف بسيط في الفكر وينتهي كل شيء، يظهر خطأ. لكن، كما أخبرتك بالفعل، لا توجد أخطاء، لعدة أجيال لا توجد أخطاء. لقد واصلت فقط بنفس الصرامة. كما هو الحال في تلك المنازل العائلية القديمة ـ كما قال فيتريوس ـ حيث يكون الورثة عنيدون في الحفاظ على عادات معينة والمطالبة بدرجات معينة من الحساسة في الخدم الجدد؛ الأمر متشابه إلى حد ما، يتعلق الأمر بكونك فيتريوس وريثًا جديرًا بالاهتمام، قالها ضاحكًا. لقد كان هذا الفعل واحدًا من أفضل وسائل الحماية التي حصل عليها والدي وجدي، وأعتقد أنهما نجا من هذا العالم بسبب هذا. في بعض الأحيان أعتقد أن قنبلة أو رصاصة، من بين الكثيرين الذين كانوا موجودين هنا في أوقات مختلفة، لم تصلهم لأنهم كانوا يركزون على هذا، على هذا العمل. إنه يتعلق، أعلم أنك لن تفهم... لكنه عمل ديني، يتعلق بالخروج من العصر، الخروج بطريقة ملموسة للغاية، الخروج بطريقة؛ ليست هروب أخرق حيث نسقط خلاله الأشياء التي بعضها لا غنى عنه.

إنه ليس هروبًا، بل مغادرة هادئة، أنيقة، بدون تسرع، كشخص يفتح بابًا ثم يغلقه من خلفه، تقريبًا دون إصدار صوت. قال لي انظر. أخبرني عن تاريخ مهم في هذا القرن، حدث رئيسي، أخبرني به.

ابتسمت، حاولت أن أتذكر... لم يسمح لي بمواصلة رحلتي العقلية، استمر في الحديث. على سبيل المثال، اليوم الذي قُتل فيه الأرشيدوق فرانز فرديناند، 28 يونيو 1914. أدى ذلك إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى. تاريخ مهم، صحيح؟ ثم صمت فيتريوس، وسحب خزانة ملفات من الرف، وبدأ في البحث. ثم وجده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألني «هل تريد رؤيته؟» انظر إلى هذا التاريخ، على الجانب. بعد ذلك بقليل - وطوى الصفحة إلى الوراء، 27 يونيو، 1914. الآن هنا - ها هو، 28 يونيو، 1914، تاريخ اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند. انظر ماذا يقول هنا:

456311233456678، 456311233456686

456311233456680،

456311233456682،

456311233456684،

أخبرني بتاريخ آخر... على سبيل المثال، غزو بولندا من قبل النازيين، في 1 سبتمبر 1939. تاريخ مهم، أليس كذلك؟ دعنا نبحث عنه.

كان هناك، في خزانة ملفات أخرى. من جهة التاريخ - 1 سبتمبر 1939. بعد ذلك الأرقام:

634479003466827322219764، 634479003466827322219768، 634479003466827322219772

634479003466827322219766، 634479003466827322219770،

- ليلة الزجاج المكسور وحرق المعابد. 9 نوفمبر 1938. هل تريد رؤيته؟

وجده مرة أخرى، وأظهر لي التاريخ، على الجانب، ثم الأرقام: 27355479053766532107 6، 27355479053766532107 8...

هل ترى، عزيزي؟ هذا كل ما في الأمر. لا يتعلق الأمر بالهروب، وعدم الرغبة في المعرفة. يتعلق الأمر بالحفاظ على الاتجاه. اتجاه واحد. ونحن نقاوم لذلك فقط. ولهذا أنا هنا. وقد أعلمتك بالفعل أنه في نفس اليوم الذي مات فيه جدي، استأنف والدي المسلسل. الأمر لا يتعلق باللامبالاة أو الافتقار إلى الاتصال بالخارج - إنه يتعلق فقط بالاستمرار، والاستمرار فقط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

العين

وتذكرت هذا.

كنت أعرفه جيدًا، ابن الثلاث سنوات في ذلك الوقت، ابن صديق لي، لكن ما رأيته يفعل فاجأني وبطريقة ما وضعني في حالة ترقب. وبينما يأكل كل قضمة من الخبز المحمص بسعادة كبيرة، كان الصبي يمسك الجزء المتبقي من الخبز، وبعد نظرة سريعة، يذكر اسم ما تذكره به تلك القطعة: أولاً سيارة؛ ثم قضمة واحدة أخرى: وها هو ذا دولفين. ثم بعد ذلك تظهر عربة، وما إلى ذلك، وما إلى ذلك. الشيء المثير للاهتمام هو أن كل قضمة لم تكن متعمدة، فالطفل لا يسعى لبناء شكل بأسنانه؛ في البداية أكل هذا هو الشيء المهم ثم يلاحظ ما تبقى ويحاول أن يطلق عليه اسمًا كما لو كان ليطمئن نفسه، ومن ثم عادت عجينة الخبز الخالية من الشكل إلى العالم من خلال الاسم الذي أطلقه عليها. لم تكن أسنانه، ولكن قوته المذهلة (بالنسبة لعصره) في الملاحظة هي التي أعادت إنشاء القطع أو الأشياء الي العالم الحقيقي. بعد ذلك، ما كان مخيفًا إلى حد ما هو مشاهدة الطريقة المنفصلة التي ألقى بها مرة أخرى وصفًا على إحدى اللقم، مما جعل الاسم والشكل يختفيان من ثانية إلى أخرى دون أي تلميحات من الحنين إلى الماضي ـ مع مرور ثلاث سنوات كان عليه المضي قدمًا، لا شيء أكثر. كان فمه يلتهم ما كانت عيناه تحاول تشكيلهما وشعور الخوف الذي تسلل الي تدريجيًا (وربما، من يدري، أيضًا الراشدان الآخران الموجودان في الغرفة) جاءا من إدراك أن كل شيء بالنسبة له هو لهذا الطفل ـ كان طعامًا، لم يكن هناك أدنى غريزة للحفاظ على الأشكال، حتى تلك التي ابتكرها بنظرته. كل شكل في العالم دمر شهيته تم استبداله بآخر، ولكن حتمًا أصبحت قطعة الخبز أصغر فأصغر، والجزء الأخير، نظرًا لشكله الدائري، حدده كعين (وفي الواقع، بالنظر إليها). بعناية، كانت عين موجودة، مع القزحية التي بدت بنية اللون والبؤبؤ الذي يمكن القسم على احتوائه على بعض الضوء)، تلك العين، تلك العين الرائعة، استغرق عمرها بضعة أجزاء من الألف من الثانية.

كان الفراغ الذي أعقب ذلك غريبًا. لم يعد لدى الصبي أي شيء في يده: فقد أطلق أسماء على عدة أشياء ثم جعلها تختفي؛ وفي النهاية، لم يكن هناك شيء ـ لا مادة، ولا حتى تعليق، وكلمة، ولا شيء؛ لقد سئم الطفل من اللعبة أو ببساطة أحس بالشبع، والرجال في الغرفة، بمن فيهم أنا، كما لو لم يحدث أي شيء ذي صلة، ثم استأنفوا العمل الذي يثير قلقهم في العالم.

ومع ذلك، لم أنس تلك العين مرة أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

العودة إلى الفندق

في طريق العودة، في أحد الشوارع، معلقةٌ عالياً على الجدار على جانبي الأيمن، صادفت لافتة سريعًا ما تعرفت عليها. كانت بلا شك من عائلة ستام. كما حدثت هناك العديد من الجهود لتعطيل عمليات إعمال العقل هناك، مستخدما التعبير الذي كرره فريد ستام.

لقد كان ملصقًا جيدًا للغاية، من النوع الذي يجذب الانتباه فورًا. يكاد يكون من المستحيل على شخص ما أن يسير في ذلك الشارع ألا يتوقف، حتى لو كان ذلك لبضع ثوان فقط، أمام تلك الصورة وتلك الكلمات.

وصلت أخيرًا إلى الفندق في وقت متأخر من بعد الظهر. كانت رافائيلا تنتظرني. انتابني الذعر.

- أين حنّة؟

- انها مع زوجي، لا تقلق.

في ذلك الوقت، شعرت بالذعر نوعًا ما ـ حيث إني قضيت ساعات طويلة جدًا مع فيتريوس ـ وهذا كان وقتًا طويلاً بالنسبة إلى حنّة.

قالت رفائيلا:

- عندما كنت في الخارج، جاء مصور. سائلًا عنك... أراد تصوير الفتاة، فقال إنك أعطيته الإذن. لكننا لم نقبل أن يفعل ذلك.

لم أستطع الرد. لم أكن أعرف ماذا أقول.

«إذا كنت تريد رأيي، لم يعجبني هذا الرجل، قال انه سيمر مرة أخرى لاحقا...» غمغمت رافاييلارافائيلا وظهرها لي...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السابع

الكابوس

1

الكابوس

في إحدى تلك الليالي راودني كابوس. من الصعب تحديد عدد الأشخاص الموجودين فيه بالضبط. بين خمسة عشر وعشرين طفلاً مصابًا بالترايسومي 21.

وقد تم تحذيرهم مرارًا وتكرارًا بعدم الذهاب إلى هذا الموقع. قرار بالمنع قاموا بتجاهله فجأة، ومن ثم دخلوا تلك المساحة الصغيرة من الأرض، مزبلين بعض الثمار المتعفنة بالفعل والبدء، كل واحدٍ بمجرفته، في الحفر.

كانت إيماءاتهم قوية ودقيقة. من رآهم ـ وكنت أراهم، من حيث لا أعرف ـ من رآهم، إذن، سوف يندهش من حقيقة أن تلك الوجوه الغريبة، المتطابقة تقريبًا، كانت، في النهاية، بداخلها، تمتلك مثل ذلك الجسم قادر على مثل هذه الحركات الدقيقة.

في أقل من نصف ساعة بدأت الحفرة في التشكل. بالمجارف والمعاول، كانت مجموعة الأولاد والبنات المصابين بالترايسومي 21، تنبعث منهم صرخات صغيرة من الرضا، أزالوا طبقات الأرض بمعدل غير عادي. أتذكر تفكيري بأن هناك أمرًا لا يصدق كونهم لديهم القوة لاختراق الحاجز الأسمنتي الأول، الحاجز الذي غطى المساحة التي كانت محظورة عليهم منذ سنوات عديدة، لكنني أتذكر، بعد ذلك مباشرة، تفكيري في ذلك، حتى في تلك الظروف، حيث ان هناك دلائل على أن كل شيء حدث في المنام، ليس بالإمكان بالنسبة لهم اختراق حاجز خرساني، وبالتالي، توجهت الي الاقتناع بأنه لا، وبأن ما قاموا بكسره كانت هي الأرض أولاً.

الحقيقة هي أنه في الحفرة ـ التي فتحوها بحركاتهم النشطة للغاية ـ برزت قمة بها صليب، مرئية بالفعل، وبعد وقت قصير ظهرت قبة سطح كنيسة، والتي، في البداية، كان ينبثق منها ضوء باهت.

استمروا في الحفر كما لو لم يتبقى لديهم الكثير من الوقت لاستخراج ما كانوا على وشك الكشف عنه، وبدت وجوههم بلا تأثر ملحوظ. في كل حركاتهم كان هناك تسرع ويبدو أنهم كانوا يحاولون اكتشافه قبل فضح أمرهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استمرت التربة في التراكم بكميات هائلة، وكما كشفت الكنيسة عن نفسها لعيني وخاصة لأعين المجموعة ـ ظللت أشاهد، مختبئًا، دون أن أنبس ببنت شفه، مع شعور بنتائج هائلة تلوح في الأفق ـ يفقد اليوم جزءًا من قوته وفي نفس الوقت بدأ الظلام في فرض ستائره، كان الضوء القادم من داخل الكنيسة يكتسب، في تناسق غريب، القوة التي اعترت ضوء الشمس.

الأطفال المصابون بالترايسومي 21 ـ رأيت دائمًا وجوههم وابتسامتهم، بدوا لي مبتهجين. كانت الكنيسة بالفعل قد برزت في الأفق عمليًا. أظهرت أكوام التراب مقدار العمل غير المعتاد الذي قامت به تلك المجموعة. أتذكر أنني كنت أفكر في أن مثل هذا القدر من العمل، وان مثل هذا القدر من الجهد المستمر، كان ممكنًا فقط، من ناحية، بسبب التوقعات التي خلقوها لأنفسهم على مر السنين حول تلك المساحة المدركة لمثلهم، ومن ناحية أخرى، بسبب خوف معين من أن يتم اكتشافهم في أي لحظة قبل أن يتمكنوا من رؤية ما يكشفون النقاب عنه.

في هذه الأثناء، حل الليل أخيرًا وسمح الظلام الخارجي للنور القادم من الكنيسة أن يكتسب بُعدًا مركزيًا. أخيرًا، تقبع الكنيسة على مرمى البصر تمامًا، وينشأ منها جمال غريب ـ وكأن جمالها وصل إلى مستوى لا تدركه العيون وحدها، بل يتطلب أيضًا جهدًا عقليًا.

ترتفع الكنيسة من قاعدتها إلى الصليب، الذي كان أول جزء يتم اكتشافه، عن سطح الأرض 30 مترًا وقطرها حوالي 7.8 متر ـ وبالتالي كانت هذه الأبعاد غير العادية للحفرة التي قامت المجموعة بحفرها في غضون ساعات قليلة.

إن سطوع الواجهة الخارجية للكنيسة والضوء المستمر الذي يشع من الداخل جعل المجموعة، مثل أي مجموعة من الأطفال المتحمسين لاكتشاف من هذا الحجم، تنزل إلى أسفل، بصعوبة أكبر أو أقل، وتضرب بعضها البعض بالمرفقين. محاولة للمس التمثال الجذاب، بينما يميل الآخرون رؤوسهم على الزجاج في محاولة للنظر داخل الكنيسة، والبعض الآخر يدورون حول المبنى بحثًا عن مدخل آخر في الخلف.

تتقدمهم موسيقى آسرة قادمة من داخل المبنى ـ مما زاد من فضول الأطفال وإثارتهم ـ حدث ذلك فجأة ـ وفي تلك اللحظة كان من المنطقي ألا تكون قادرًا على تحمل كونك متفرجًا وأن تستيقظ من النوم، ثم حدث أن دوى صوت ضجيج هائل، ضجيج وحشي لا يوصف، ضجيج بدا أنه يأتي من شيء لا شكل له ولا يمكننا إطلاق اسم له؛ وكان هذا الضجيج هو ضجيج الأرض المحيطة بالحفرة التي تنهار؛ كما لو أن ميلًا للكرة الأرضية أدى فجأة بكل الأرض المتكدسة أن تنهار نحو مركز الحفرة. في بضع ثوانٍ انتهى الأمر: ضجيج الأرض القاسي العائد إلى المكان الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استخرجت منه اختلط بصوت أو بآخر، أحيانًا يصرخ، وأحيانًا كأنه يضحك. وهكذا تم ابتلاع الكنيسة مرة أخرى. ثم توقفتُ أخيرًا عن سماع أصوات الأطفال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثامن

في الفندق، حول الفندق، تائه في الفندق

1

زبائن

لم يكن هناك شيء غريب بشأن زبائن الفندق، الذي لم يكن ممتلئًا في تلك الأيام.

نظرًا لأن الفندق تم تشييده من طابق أرضي واحد، فقد تم توزيع الغرف في اتجاهات كثيرة ومتنوعة، ويخضع اختيار مواضع الغرف، إلى المنطق الذي شرحه لي موبيوس في مكتبه. لم يكن تحديد الوجهة سهلاً على الإطلاق، مع الأخذ بعين الاعتبار الممرات المختلفة وبعض الأعمدة التي تعترض الطريق فقط، ولولا العلامات الموجودة عند مفترق الطرق، وعلى الحوائط، مع وجود أسهم تدل على أسماء الغرف واتجاهها. مما يثبت فكرة التردد حول إدراك الطريق المباشر لكل غرفة واتجاهها.

في بعض الأحيان، كنا نصادف بعضًا من الضيوف: زوجان شابان متحفظان، لم يبتسما كثيرًا لأحد باستثناء حنّة، ورجلا أعمال، في منتصف العمر، اعتادوا الحركة عبر الممرات كما لو أنهم خاضعان لسيطرة زمن آخر، وليس زماننا، واللذان يبدوا وكأنهما يتبعان قوانينَ خاصة بهم، غير مفهومة لنا.

قطنت هناك أيضًا عميلة دون الثلاثين، وحيدة. عند الإفطار، هذه المرأة تستمر في الأكل والشرب دون أن ترفع نظرها عن صفحة الكتاب التي تقرأها للحظة، وفكر ماريوش فيما تأكله حقًا، لأنه كان هناك بلا شك ريبًا في ادراكها ما تأكل، عدوى؛ ومن هنا انتابه الشعور بأن تلك المرأة لا يمكن أن تكون لديها رفقة ممتعة، لأن من مراقبته لها، في تلك الصباحات أثناء تناول طعام الإفطار، لاحظ أنه يبدوا من عدم اهتمامها بما تأكل يبدو أنها تضع الطعام في فئة العناصر الاصطناعية، هذا الموقف ـ على عكس ما يقدمه. فقد جعلها تفضل حياتها على أي شيء آخر ـ لم يتقبله الزوجان تمامًا.

رافائيلا وموبيوس. كان ماريوش قد سمع عدة تهكمات غير سعيدة، عن تلك المرأة، بطريقة اعتبرها غير مهذبة.

بالنسبة للباقي، الفندق بأكمله رصينًا، دون أي علامة على الفقر أو الثراء؛ لقد كان حياديًا بل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكاد يكون هامشا، حيث بدا أن الأثاث والديكور موجودان فقط لإنجاز مهمة محددة ألا وهي الطلب بلباقة من الضيوف الصمت. الذين بالتبعية أطاعوا طلبًا لم يكن موجودًا بشكل رسمي. كان الجميع يتنقلون باحترام عبر فراغات الفندق، وكانت المحادثات دائمًا ما تكون بنبرة صوت متوسطة ومهذبة ـ والاستثناء الوحيد بالتحديد كانت حنّة التي، في بعض الأحيان، دون أن تتحكم في نفسها، تقول كلمة أو عبارة صغيرة تقريبًا بنبرة صراخ، وكذلك حركاتها وإيماءاتها كانتا ذا تأثير أقوى بشكل واضح.

كما حدث في كل مكان مررنا به، لم تكن هناك، رغم وضع حنّة، نظرة واحدة من الاستياء. وحتى المرأة حاملة الكتب، في المرة الوحيدة التي تركت وجهها يظهر، كما لو كان يطفوا على السطح، كانت تتجاوب، مبتسمة، لصرخة عفوية سمعتها من حنّة.

أما الضيف الأكثر إثارة للاهتمام حتى الآن هو ذلك الرجل العجوز، كما أسمته رافائيلا. تم قبول هذا الرجل العجوز لأسباب واضحة ـ من المؤكد أنه سيبلغ من العمر أكثر من سبعين عامًا ـ وأيضًا لأنه كان أكبر ضيف. وهذه الأقدمية لم تكن تلك الخاصة بشخص يعود بانتظام إلى نفس الفندق.

الرجل العجوز، كما تدعوه رافائيلا، عاش في الفندق لمدة اثني عشر عامًا، أي منذ افتتاحه تقريبًا. أخبرتني رافائيلا أنه في المرة الأولى التي أتى فيها إلى هنا، جاء بناءاً على اقتراح شخص ما، ما كاد يعرف بالفعل بشيء من الدقة كيف تم انشاء الفندق حتى سأل على الفور عن غرفة تيريزين. تلك المرة الأولى، للأسف، كانت الغرفة مشغولة بالفعل لمدة ثلاثة أيام. قالت رفائيلا إن الرجل العجوز حجز لمدة أسبوع وبمجرد دخوله طلب الانتقال الى غرفة تيريزين عند مغادرة الضيف الآخر. كان هذا ما حدث. أمضى أربعة أيام في تلك الغرفة ثم دفع الفاتورة وغادر. عاد بعد شهرين. في ذلك الوقت، كانت الغرفة التي يريدها غير محجوزة. أقام بها لمدة أسبوعين. بعد أسبوعين، دفع المال وحجز مدة أخرى.

بعد شهر ونصف، عرض علينا استئجار غرفة تيريزين بشكل دائم. نتفاوض على سعر مختلف. يدفع كل أسبوعين. وقالت رافائيلا «لقد مضى وقت طويل وهو هنا. تيريزين ملكه»».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

التيه في الفندق

ما كان جليًا في الفندق، كما قلت سابقًا، لم يتضح جشع الزوجين في با واضحًا من جانب الزوجين، والذي أصبح واضحًا بعد يومين أو ثلاثة أيام فقط. الإفطار، المشمول في السعر، كان بسيطًا وكان يخدم كل شخص نفسه بما يريد، والذي أعطى في البداية شعورًا خاطئًا. في الواقع، كانت رافائيلا نفسها هي التي استبدلت المائدة التي أخذ منها الضيوف الخبز والحليب وما إلى ذلك، بحيث أصبحت طاولة بقايا الطعام بشكل دائم، حيث كانت هناك قطعة خبز واحدة، أو لا شيء على الإطلاق، قليل من الحليب في إبريق وبقية الزبدة والقهوة. ما افتقدته في اليوم الأول، في اليوم الثاني، اتضح أنه جزء من سياسة الخدمة التي يقدمها الفندق. تحضر رافائيلا المزيد من الطعام فقط عندما ينته كل شيء؛ تحضر المزيد من الخبز فقط ـ ثلاثة، أربعة، في المرة الواحدة، لحوالي سبعة ضيوف حاضرين في غرفة الطعام ـ كلما فرغت سلة الخبز تمامًا. هذا يعني أنه، عدة مرات، كان هناك فاصل زمني بين السلة الفارغة واللحظة التي تأتي فيها رافائيلا من الداخل، من المطبخ (تقضي الصباح بين المطبخ وغرفة الطعام)، تكتشف هذا النقص، وتغمغم، هل أنتم بحاجة إلى المزيد من الخبز، ثم تترك غرفة الطعام مرة أخرى، وتعود إلى المطبخ، ثم ترجع من خلال الباب، محاطةً بنظرة الضيوف المتلهفة، الذين يكادوا يلتهمون السلة بأعينهم التي وصلت مؤخرًا كما لو يثبتون نظرهم على يد ساعي البريد الذي يدخل الأصابع لتخرج حاملة الرسالة التي ستنقذهم. تلك الفترات ـ التي لم يوجد فيها خبز أو حليب في بعض الأحيان على الطاولة، وظل فيها بعض الضيوف واقفين، منتظرين، والصحون والأطباق بأيديهم، بينما ظل آخرون، بشكل أكثر تواضعًا، جالسين ـ تلك الفترة الزمنية، قال، كانت ذات تأثير حيث أنه منذ اليوم الثاني والثالث تسلل نوع من الاستسلام إلى الضيوف مما جعلهم في العديد من المرات وهذا ما حدث لي مع حنّة ـ لعدم صبرنا على انتظار المزيد من الخبز، غادرنا غرفة الطعام بعد أن تناولنا القليل جدًا من الطعام في الواقع، ولكن، كما قد يبدو الأمر غريبًا، غادرنا مع شعور بأننا قد أكلنا ما يكفي، وبالتالي، في وقت قصير، اعتدنا على هذا النظام الغذائي.

أظهر تفصيل واحد فقط عادات رافائيلا ـ عملية تجديد المناديل. في اليوم الأول، شعرنا أنه كان هناك دائمًا مناديل على الطاولة التي يتناول الجميع طعامهم من خلالها، على الرغم من أننا لم نشاهد أبدًا أكثر من منديلين أو ثلاثة مناديل فوق العبوة التي تحتوي عليها. كان اليوم الثاني أو الثالث عندما أدركنا أن رافائيلا احتفظت دائمًا بنفس العبوة، تحضر من الداخل، عندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنفد المناديل، في كل مرة، اثنان أو ثلاثة فقط. جدير بالذكر أن علامات الجشع تلك، بالنسبة لي وبالنسبة إلى حنّة، استبدلت إلى حد كبير بكرم زاد على مدار الأيام، خاصة تجاه حنّة. كانت كمية الحلويات التي قدموها لها خلال تلك الأيام هائلة، مما يدل، بطريقة ما، على أن تلك العلامات التي تدل على شح معين، ترجع في اعماقهم إلى نوع من العادات الفردية والقديمة التي لم أرغب أبدًا في معرفة أصلها. ولأنهم لم يعودوا مهتمين (وبالتالي، لا يوجد تصور بأنهم يمكن أن يتصادموا مع الآخرين).

ومع ذلك، كان هناك وقت أثارت فيه تلك العادات الصارمة والمتشددة غضبًا بداخلي كان من الصعب استرضاءه.

في الليلة التي سهرنا فيها مع فيتريوس، تاجر التحف، وصلت أنا وحنّة إلى الفندق بعد منتصف الليل، وكالعادة، تم إطفاء الأنوار في ممرات الغرف مركزيًا، وكان الضوء الكهربائي الوحيد الذي تم الاحتفاظ به. من في ذلك الوقت، كان ذلك الذي في منطقة الاستقبال، حيث كان، حيث دائما ما توجد رافائيلا. لذلك اعتدنا أن نرشد أنفسنا من خلال الآثار الباهتة مع كل خطوة من ذلك الضوء عند المدخل (والذي يعطي إحساسًا بأنه إصبع يشير من وقت لآخر إلى الطريق وهذا، شيئًا فشيئًا، مع تقدمنا، نسينا أمره)، وفقط مع هذا الضوء الباهت في الخلفية كان على الضيوف الاسترشاد به إلى غرفهم.

نظرًا لأننا ما زلنا لا نشعر بالراحة (وصلنا مؤخرًا فقط)، ولأن لدي فكرة ـ والتي تبين أنها خاطئة ـ أنني لن أحتاج إلى مساعدة في العثور على الغرفة، انتقلت، بعد تمنيات ليلة سعيدة، أتقدم حنّة، أمشي بعيدًا مع كل خطوة من النور ومع كل خطوة تدخل في ظلام لم يكتمل تمامًا، ولكن هذا ما كان يُدرك في الأمتار الأولى. ربما نزلت في الممر الخطأ منذ البداية؛ الحقيقة هي أنه على الجانب الأيمن حيث اعتقدت أنه وضع اسم غرفتنا، أوشفيتس، كان داخاو. أدركت لاحقًا من التفاصيل الأخرى أننا لم نكن في الردهة المؤدية إلى غرفتنا. أمسكت بيد حنّة بقوة بيدي اليسرى، واصلت السير في ممر غريب يؤدي إلى غرف أخرى. على ارتفاع معين، على الرغم من الظلام شبه التام، كان هناك ضوء صغير أو، بشكل أكثر تحديدًا، توهج لا يأتي من الصفائح المعدنية حيث تم كتابة أسماء الغرف، ولكن حصريًا من أحرف الأسماء نفسها. من معدن أكثر إشراقًا، كانت، في ذلك الوقت، نقاط الوضوح الوحيدة. لذلك كنا نتحرك عبر ضباب مظلم يبدو أنه يغطي أقدامنا ومصادر الضوء الصغيرة التي قالت عنها حنّة لاحقًا إنها تبدو وكأنها رسومات مرتبة ومنظمة. في مرحلة معينة، بدأت أشعر بالخوف حقًا لأن افتقاري للتوجيه أصبح واضحًا. بصرف النظر عن أسماء الغرف، لم يكن هناك مرجع وفي تلك اللحظة كان لدينا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غرفة هينزرت(7) على اليمين، وبريتيناو(8) على اليسار.

في نفس الوقت الذي نما فيه الغضب الذي زاد مع انعدام السيطرة، حاولت طمأنة حنّة، وأخبارها بنبرة محايدة: يبدو أننا تائهون. فاجأتني حنّة تمامًا لأنها خلال الوقت الذي ضعنا فيه، وتهنا تمامًا عن غرفتنا، لم تنطق بكلمة واحدة وظلت هادئة تمامًا، كما لو كانت تستمتع فقط بنزهة مسائية. في لحظة معينة، في وسط الظلام، كانت الحروف ت ي ر ي ـ كانت تيريزين ـ ومن الداخل، من داخل غرفة العجوز (الذي تخيلته منحنيًا فوق المكتب)، جاءت موسيقى صاخبة جدًا. رقيقة، مع مستوى صوت منخفض بحيث لا يمكن سماعه إلا من قبل شخص ما في نفس الظروف التي كنا فيها في تلك اللحظة: على بعد متر واحد من باب غرفة تيريزين وفي صمت مطلق. كانت الموسيقى القادمة من الغرفة ساحرة تقريبًا، وبمجرد لمسة من حنّة، تصرفت بشكل غريزي، متوقفًا هناك. ظللنا هكذا لبضع ثوان، وأنا مفتون بالتفكير في الرجل العجوز، متخيلًا وجه الرجل العجوز، وجه لرجل عجوز عاش هناك لسنوات، وعلى الرغم من ذلك، أظهر احترامًا مثيرًا للإعجاب تجاه الضيوف الآخرين. لذلك كنت هناك، أستمع إلى الموسيقى بمثل هذا الصوت لدرجة أنني كنت أميل تقريبًا إلى وضع يدي حول أذني، كما لو كنت أقوم بتوجيهها حتى لا تضيع آثار الصوت. لقد كانت لحظات قليلة استطعمنا فيها أنا وحنّة هذه الموسيقى. لقد نسيت تمامًا الغضب تجاه تلك العادة الجشعة لإطفاء الأنوار، وكذا نسيت القلق من عدم العثور على غرفتنا، كنا نستمع ببساطة، مثل شخص يدخل غرفة بشكل غير متوقع في منتصف حفل موسيقي مقنع. ما هذه الموسيقى؟ لم يكن لدي وقت للتوصل إلى أي نتيجة، لأنها توقفت فجأة. وبعد ذلك، نعم، عم الصمت المكان، وليس هناك من ناطق لكلمة أخرى، ارتعبت. كان ذلك الصمت المفاجئ، دون سابق إنذار، بمثابة صدمة لم يعد جسدي مستعدًا لها، لأنه بطريقة معينة، دون أن أكون على علم بذلك، خفضت الموسيقى من دفاعاتي. شعرت أن جسدي قد تم القبض عليه على حين غرة، وخطر ببالي، بغباء، أن فعل تيريزين العجوز تعمّد ذلك ـ لإخافتنا؛ عمل مثير للاشمئزاز، أتذكر التفكير؛ ولكن في نفس الوقت، دون السماح لنفسي بالرد أو اتخاذ قرار، بدأت الموسيقى ثانية، ومرة أخرى، شيئًا فشيئًا، طلبت عضلاتي الإذن بالاسترخاء في نفس الوقت. عندها فقط لم أسمح بذلك، انها نفس الموسيقى ـ من الواضح أنها نفس الموسيقى ـ قد تم سماعها بشكل مختلف تمامًا ـ لقد تركت منصب مستمع للحفل وكنت بالفعل في حالة تأهب قصوى. سحبت حنّة واستمرينا في التقدم، لأنني ـ أدركت لاحقًا عندما فكرت في تلك اللحظات ـ للمرة الثانية، أن تلك الموسيقى تثير الذعر، والقلق الشديد من فكرة أن الموسيقى، مرة أخرى، بدون سبب واضح، قد توقفت ثانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذا تقدمنا، وما زلت مرتبكًا، قررت أن أتبع الأجزاء الصغيرة من الفندق التي يسقط عليها شعاع أو اثنين من ضوء غرفة الاستقبال. ثم نعود إلى نقطة البداية، إلى الاستقبال. لم تكن رافائيلا هناك. من المؤكد أنها قد خلدت إلى النوم، فقد دخل جميع الضيوف بالفعل. ساد الصمت المطلق ولم يكن بإمكانك سوى سماع صوت تنفس حنّة، وهي متعبة بالفعل، وأنفاسها تزداد تلهفًا في تلك اللحظة ـ لقد لاحظت شيئًا وكانت خائفة. في خضم ذلك الصمت، ناديت على رفائيلا بأكبر قدر ممكن من الهدوء. وكانت تلك لحظة غريبة بحق احتجت إلى النداء على شخص ما، لكنني أجبرت نفسي علي الالتزام بالصمت الذي يحترمه الضيوف الآخرون. لذلك صرخت مرتين تقريبًا كما لو كنت أتذمر (لا توجد طريقة أخرى لوصف ذلك) باسم رافائيلا. شعرت بأني كنت أصرخ لأنني وصلت إلى حد معين يعتري المرء بعده الخوف، خوف واضح، لكن في نفس الوقت، من الناحية الموضوعية، كان حجم صوتي ضئيلًا. على أي حال، لا شيء. لا أحد. انها لم تعد موجودة.

استعدت كامل تركيزي واتضح لي في تلك اللحظة أنني مع فتاة مصابة بالترايسومي 21 في رعايتي، وأنه ينبغي على اصطحابها بأمان إلى غرفة الفندق حيث ننام. أنا داخل الفندق، لا يوجد خطر، كررت لنفسي.

لم يدر الموقع المكاني لمعسكرات الاعتقال المختلفة بأدنى جزء في رأسي، والذي كان سيسمح لي بتحديد موقعنا من الغرفة، على الأقل من حيث التوجه العام ـ وبالتالي، كانت المهمة الآن هي التركيز فقط في التفاصيل الصغيرة لقطعة أثاث أو أخرى تذكرت وجودها بالقرب من غرفتنا، وخطوة بخطوة، دون أخطاء، ثم الذهاب مباشرة، بعد ذلك، إلى أسرتنا للنوم، لأننا كنا متعبين ـ حنّة وأنا وهذا سيكون كافيا. لقد تجاوز الامر بالفعل كل الحدود. وفي تلك اللحظة، لم يكن غضبي مصبوبا على نقص الضوء، ولكن بسبب عدم القدرة على توجيه نفسي.

لذلك مررنا بمنطقة الغرف مرة أخرى، وأخيراً اعتقدت أنني دخلت الممر الصحيح. مشينا بضع خطوات.

على الرغم من انقطاع الضوء الذي تسبب في العودة إلى الاستقبال، شعرت، هذه المرة الثانية، أن عيني بدأت تتكيف بشكل أسرع مع البيئة الجديدة. تم التعرف على أحرف كل غرفة، الآن، مثل حيوان يتم اصطياده، بخفة حركة كبيرة، لأنها كانت نقاط التوجيه الوحيدة ـ لا يمكننا أن نفقد الحروف. على يميننا، غرفة فستربورك، نتحرك للأمام قليلاً ومرة أخرى على يميننا الباب الآخر: نيونغامي. كنا قريبين من غرفتنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة شعرت بخجل شديد، تخيلت نفسي أطرق باب إحدى الضيوف، الغرفة المسماة بتيريزين، نعم لقد مررت عليها مرة أخرى، ووجدتني أسأل الرجل العجوز عن الطريق إلى غرفتي، متخيلًا تمامًا مقدار سخافة ذلك الأمر. لقد ضللنا بالفعل مرة أخرى وقررت أنه من هناك، حتى لا أزيد شعور حنة بعدم الأمان، سأحاول دائمًا عدم إظهار أي تردد، كما لو كنت أعرف بالفعل الطريق الصحيح وكنا نسير كثيرًا فقط لمجرد أن الطريق طويل. مررنا بتريزين للمرة الثانية. لم أرغب في معرفة ما إذا كانت الموسيقى مستمرة أم لا فقمت بجذب حنة قليلاً. التفت في تلك اللحظة تجاه ممر آخر. بدأت أشعر بالرعب. تخيلتنا فجأة ننام في الممرات. فكرت في مدى سخافة تلك الفعلة. احمر وجهي قليلاً. إذا كان هناك ما يكفي من الضوء، فستتمكن حنة من ملاحظة احمرار وجهي من الخجل. على اليسار لدينا تريبلينكا، ثم ماجدانيك، ثم على اليمين بيلزك. كانت ساقاي ترتجفان، ولكن أخيرًا كان هناك شيء ما، على بعد أمتار قليلة، إلى اليمين، متوهجًا ـ بدا لي وكأنه «أ» ضخم، «أ» عظيمة، ثم «و» ف «ش» وفي النهاية «فيتز». أوشفيتز. شعرت بصدمة في جسدي، وكأن طاقة عدوانية قد اندفعت فوقي فجأة لا أتمكن من التخلص منها. لقد كان شعوراً هائلاً بالراحة. المرح. وددت التنفيس عن شعور قليل بالرضا، لكنني حافظت علي تركيزي حتى النهاية؛ بعد أن كنت أتحكم في نفسي، أدخلت المفتاح في القفل وأدرته ثم فتحت باب غرفة النوم لدخول حنة ثم قلت ها قد وصلنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

الظهر

تلك الألفة التي استقرت بيننا وبين أصحاب الفندق أدت إلى حلقة غير عادية من الوقاحة التي لم أكن أتخيل حدوثها منذ دخولي هناك.

ذات ليلة، بينما كان رافائيلا يلعب مع حنّة، التي بدأت تظهر عليها علامات التعب، طلب مني موبيوس الحضور لأنه أراد اخباري بشيء ما. لذلك عدنا إلى المكتب حيث شرع في شرح الهيكل المعماري والهندسي للفندق. لم يتاح لي الوقت حتى للنظر مرة أخرى الى الخرائط التي غطت الجدران، لأن موبيوس، متذمرًا، أردت أن أريك هذا، بدأ في فك أزرار قميصه واحدًا تلو الآخر.

في تلك اللحظات لمع في رأسي كل شيء، خلال ثوانٍ شعرت أنني وقعت في فخ ما. اعتقدت على الفور أن شيئًا ما قد حدث لحنّة وأن هذا الرجل الجاف الرصين يريد مفاجأتي بذلك. ومع ذلك، سرعان ما هدأت من روعي. إذ بحركة مفاجئة، نزع موبيوس قميصه الداخلي واستدار مبرزًا ظهره لي، الذي كان للوهلة الأولى مغطى بالكامل بخطوط تشبه خدوش الأطفال. مثل الجدران المخرّبة، كان الظهر مغطى بالكامل بالحبر.

بدأ موبيوس في تفسير ذلك لي، وبهدوء شرعت في فهم ماهية الأمر ـ ما هو مكتوب (أتذكر أنني فكرت في الأمر على هذا النحو بالضبط) على هذا الجدار البشري. لقد أوضح التفسير، إذن، أنني لم أكن قِبل تخريب غير منظم لجزء من جسد موبيوس، ولكن، على العكس من ذلك، قِبل سلسلة من الكلمات وليس فقط كلمات بأبجدية رومانية؛ الكلمات التي شرحها لي موبيوس باختصار في الوقت الذي كنت أكتشفها فيه بنفسي أيضًا، وليس كلمات مذكورة بشكل صحيح، في المجمل، ولكن بشكل فعال، كلمة واحدة، تتكرر بعشرات وعشرات اللغات: كلمة يهودي. لم يشرح لي سبب اخباري بذلك، لكنه أوضح أصل الأمر.

على الصدر لم يكن هناك حرف واحد، كل شيء كان مركّزًا على الظهر. كان وشما.

قال موبيوس ما بين السخرية والقناعة الغريبة الغامضة، لن يختفي هذا حتى بعد الموت. ظهره، كما قلت من قبل، من مسافة معينة، بدا وكأنه مجموعة متشابكة من الخطوط غير المحددة التي لها وظيفة واحدة: إخفاء سطح الجلد. حقيقة أنه عن قرب بدت تلك السكتات الدماغية غير المتصلة على ما يبدو وكأنها رسومات ـ ظهرت كما لو كانت في الواقع ضربات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرتبة شكلت، في معظم الحالات، أحرفًا معروفة ـ شكلت مفاجأة كتلك التي تحدث للمرء عندما، يجلس أمام مجموعة من الوجوه المشوهة وغير المعروفة بين حشد من الناس، ثم يبرز وجه فجأة وعندها فقط ندرك أن هذا الوجه ليس مجرد وجه نعرفه فقط، بل وجه أبينا. وبنفس الطريقة التي في هذه الحالة سنميل إلى التساؤل: ماذا تفعل هنا وسط هؤلاء الغرباء؟، فأنا أيضًا، من اللحظة الأولى عندما لاحت لي كلمة يهودي بوضوح مكتوبة بأربع أو خمس لغات، شعرت بالحاجة الي التساؤل: ما الذي تفعله هذه الكلمة هنا؟

تلك القصة يرجع أصلها الى أكثر من خمسة عشر عامًا، كما أوضح لي موبيوس.

في لحظة معينة، في المدينة التي عاش فيها هو ورافائيلا، بعد أن تزوجا بالفعل، ظهر ثلاثة يهود مقتولين، علي مدار ثلاثة أسابيع. لم يتم التعرف على قاتل هؤلاء الرجال الثلاثة والعديد من الأشخاص الآخرين الذين تلوا ذلك.

قال موبيوس بابتسامة غريبة: «كانت السمة المشتركة بين هؤلاء الضحايا، إذن، أنهم جميعًا يهود، حقيقة أنه، نظرًا لبيئة الوقت (استخدم موبيوس في ذلك الوقت التعبير غير العادي المستخدم في ذلك العصر)، لم تكن مفاجأة على الإطلاق، للعثور على أكثر من عشرة أسباب مفهومة فكريا لمن يريد قتلنا، قال موبيوس نفسه. كان الضحايا جميعًا من الذكور والسمة الفريدة لهذه الجرائم المتسلسلة هي أن القاتل، في إحصاء مروّع، قام بترقيم الضحايا من خلال كتابة رقم على ظهورهم. أصبح هذا مهمًا للغاية لدرجة أنه عندما تم العثور على يهودي مقتول مع 6 علامات من أعلى إلى أسفل على ظهره، أمضت الشرطة عمليًا الأسبوع التالي بأكمله في البحث عن الضحية رقم 5 ـ لأنه لم يكن قد تم العثور عليه بعد. انتهى هذا العدد المرعب، دون تخطي رقم والوصول الي الذي يليه، انتهت عمليات القتل عند الرقم 12 ـ اذن قد تم العثور على 12 ضحية، ولكن هذا الجنون الإجرامي، تمامًا كما بدأ على حين غرة، توقف فجأة. ومنذ ذلك الحين ـ مر على ذلك حوالي خمسة عشر عامًا ـ لم يحدث أي شيء آخر، على الرغم من أن القاتل لم يُقبض عليه أبدًا. أيد موبيوس الفرضية القائلة بأن القاتل مات لسبب ما خارج عن تلك الأحداث؛ أو، إذا لم يكن الأمر كذلك، شخص ما أو شيء ما كان يقظًا وأوقفه، خارج القنوات الرسمية ـ قال موبيوس. أيد موبيوس هذه الفرضية لأنه بدا من غير المحتمل تمامًا بالنسبة له أن شخصًا بدأ بتسلسل من هذا النوع، أظهر مثل هذا الهوس، يمكنه التخلي عن هذا النوع من المشروع الأسود بين ليلة وضحاها. لذلك، بالنسبة لموبيوس، فإن قاتل هؤلاء اليهود الإثني عشر مات بالتأكيد.

لذلك، كان هذا هو تاريخ ما لاحظت الآن بالتفصيل. في البداية بدأ الأمر كنوع من فخر عرقي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما قال موبيوس نفسه. في الأسابيع التي حاول فيها الكثيرون إخفاء أصلهم اليهودي قدر الإمكان، كان موبيوس، على العكس من ذلك، يبرز نفسه في جميع الأوقات والأماكن الممكنة وكان هو نفسه، في تلك الأيام، الذي طلب من زوجته أن توشم كلمة يهودي له ولأول مرة. قال موبيوس إن النقش الأول تبعه، بشكل شبه طبيعي، أوشمه أخرى. شيئًا فشيئًا، غطي ظهره بهذه الكلمة، بجميع اللغات. قال موبيوس إن كلمة «يهودي» مكتوبة بالخط السيريالي بجوار عظمة الكتف الأيمن. بجانب العمود الفقري، في الأعلى، الكلمة الموجودة في...

في النهاية، أذكر أنني فكرت في كوني أنظر إلى قاموس لجميع لغات العالم، لكن قاموسًا يحوي كلمة واحدة. قاموس هو أيضًا، في نفس الوقت، خريطة تشريحية وجغرافية. في الواقع، كان الهوس بموقع واتجاه النقاط المختلفة ظاهرًا، مما يدل على أنه تم تسجيله قبل سنوات عديدة من بناء الفندق، كان التصميم الخرائطي موجودًا بالفعل. من خلال فحص الظهر بعناية، أدركت بعد ذلك أن تلك البلدان المختلفة توجد على الخريطة، وتتشكل هناك، على جلد موبيوس، بالضبط نفس المسار الذي تسلكه العين، مع احتلال كلمة يهودي لكل بلد مكتوبة باللغة المنطوق بها في ذلك الجزء من العالم. بطريقة ما، شعرت في تلك الليلة بالانبهار بالمشهد الذي رسمه لي جسد موبيوس: جسد جاف، بدون ذرة من الدهون، سطح مستو؛ يكاد يمنحني الإحساس بأنني أمام سطح ثنائي الأبعاد، سطح يصلح للكتابة مثل الورقة.

ما بدأ كهدف شيئًا فشيئًا، اكتسب بعداً آخر، بعداً شبه أسطوري، كما أوضح هو نفسه. الحقيقة أنه شعر أن تلك كلمات تحولت إلى ما رأيته فيها لأول مرة ـ بقعة حبر لم تترك شبرًا واحدًا من الجلد ظاهرًا. لقد كان درعًا يحميه، ويعطيه طمأنينة بأنه ليس عرضة لأي خطر. قال موبيوس إن الضحايا كانوا جميعًا من المنطقة التي قطناها الاثنان ـ كان أحدهم صديقًا مقربًا، وبالتالي كان، موبيوس، بطبيعة الحال في مرمى النيران، في طريق القاتل. قال موبيوس إن شيئًا ما أنقذني من أكون أحد الضحايا. وكان موبيوس يعتقد أن ما بدا لي الآن من وشم على ظهره عمل نادر وغريب جدًا كان في النهاية سبب بقائه على قيد الحياة.

من الواضح أن التفسير المذكور لم يكن مبنياً على تفكير منطقي، لأن موبيوس نفسه على دراية كاملة بأن القاتل لم يكن يعرف، أن ظهره كان مشغولاً بالفعل. كان الإحساس بأن تلك الكلمة قد حمته، إذن، شيئًا فاق أعلي الدرجات التي يمكن الوصول إليها من الذكاء والفكر. هو نفسه قال إنه يشعر أنه يحمل سرًا لا يمكن للآخرين اكتشافه أو فهمه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل التاسع

البحث عن نبتة

1

العين الحمراء

فجأة، أمرنا أحدهم الوقوف كما لو اننا نعمل لديه. فوقفنا.

- «ما الأمر؟» سألت.

اقترب الرجل مما سمح لي برؤية عينيه عن قرب. كانت العين اليسرى حمراء كما لو أن ذلك الجزء من الجسم ـ علي قدر تفكيري ـ قد قُتل. ومع ذلك، من الواضح أنه كان يعمل بكامل طاقته ـ عين واحدة حمراء بشكل ملحوظ، ومع ذلك لا يبدو أنها تشكل أية إعاقة في طريق الرجل؛ بين الدم المسكوب على جانبي البؤبؤ، مثل شبكة العنكبوت، تكمن هناك عين دقيقة يقظة، والتي يبدو أنها تجعل الدقة التي تنظر بها إلينا أداة مقاومة العصيان. كما لو أن حثة وأنا يقع علينا اللوم بمثل تلك الإصابة.

يحمل في يده اليمنى حقيبة يحملها بشيء من الجهد. جهد يسعى جاهداً الـى إخفاءه في كل لحظة بموقف شبه طفولي.

قال لنا: «أود أن أريكم شيئًا». وعلى الرغم من أن كلماته قد تدل على ذلك، لم يكن لدى الرجل ما يبيعنا إياه.

ما كان يحمله في يده كان مبردًا صغيرًا محمولًا. وضعه على الرصيف، وعلى الرغم من أنه بدا وكأنه شخص يستعد لإظهار أنواع مختلفة من روابط العنق، إلا أنه فتح الثلاجة وازاد من خوفنا بكلمات موضحة في محاولة لطمأنتنا:

- إنه نمس. حيوان نادر.

- تمتمت حثة: «ميت».

كان ميتًا، محاطًا بالعديد من مكعبات الثلج، وهي مكعبات يحركها الرجل ليس كأنها تلف جثة حيوان صغير، بل بداخل شراب من المفترض أن يبقى باردًا.

ثم كرر «إنه حيوان نادر جدا. أود تسليمه إلى شخص ما للعناية به. بالنسبة لي لتحنيطه أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء من هذا القبيل. قال، لا يُلقى بالحيوان النادر في القمامة. على الرغم من أنه مات.

- «هل اكتفيتم من المشاهدة؟» ـ سأل.

- أجبنا نعم.

حيوان أبيض طويل الذيل. وهناك، في منتصف الجليد، كثرت الألوان الباهتة ـ بياض الحيوان مع بياض الجليد ـ ما أضفى شعورًا مزعجًا للغاية.

أوضح لنا أنه دام التنقل من مكان إلى آخر لعدة أيام مع المبرد المحمول الصغير. لا أحد يريد الاحتفاظ بالحيوان ـ قالها كما لو كان يتحدث عن حيوان حي تم التخلي عنه.

- ذهبت إلى متحف التاريخ الطبيعي وأخبروني أنه ليس لديهم موظفين محددين للتعامل مع مثل هذه الحالات. ثم ذهبت إلى جمعية حماية الحيوانات ولم يقبلوه أيضًا.

قال لنا الرجل: «إذا ما اعتمدنا حماية الحيوانات فقط وهي على قيد الحياة، فإننا نرتكب خطأ».

أومأت برأسي متفهمًا، رغم أن الخطاب بدا لي أكثر فأكثر سخافة.

- «علينا حماية الحيوانات النافقة، وعرض الحيوانات النافقة، وعندها فقط ندافع عن الباقي».

- «نعم»، أجبت.

قال الرجل فجأة: «انظر إلى عيني، وبإصبعين، الإبهام والسبابة في يده اليسرى، شد جلد الوجه حتى انكشفت عينه تمامًا، مع نوع من الجرأة الموضعية، على الرغم من عدم تخلفها عن كونها وقاحة. استعراض قد أظهر ربما شهوانية منحرفة، شيء من هذا القبيل. كانت عينه اليسرى أكثر احمرارًا من اليمنى، ولكن في كلتيهما، بانت الشعيرات الدموية، الذي ربما تأتي من الداخل، من مظهر داخلي، يُظهر بطريقة مثيرة للاشمئزاز.

ثم سأل فجأة:

- أتريدان الاحتفاظ بالحيوان؟

أجبت بلا. ليس لدينا الفرصة للإعتناء بحيوان ميت.

قال إنه سيعطينا المبرد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عليك فقط تجديد الجليد من وقت لآخر. إذا تم تغيير الجليد كل ست ساعات، سيتم الحفاظ على الحيوان دون مشاكل.

الثلاجة كانت مغلقة وعلى الأرض. أصرت حنّة على أن نأخذها ثم عانقة الرجل كما جرت العادة. أحيانًا يستغرق الأمر بضع ثوانٍ فقط حتى تقول حنّة إنها تحب شخصًا ما وتعانقه. قلت له لا. أصررت. استمر الرجل في حالة من الجنون في جذب الجلد فوق الحاجب وتحت العين، مُظهرًا العين الحمراء الهائلة.

- ألا تريد التقاط صورة لعيني؟ ـ سألني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

صورة

كان الرجل ذو العين الحمراء هو الذي نبهنا.

صورة ضخمة مثبتة على قمة مبنى. نظرنا لأعلى. ربما يكون ارتفاع الصورة ثلاثين قدمًا وعرضها عشرين قدمًا. كانت صورة مقربة لوجه.

- سألني، «هل تتعرف علي هذا الوجه؟»

نظرت إلى الأعلى باهتمام، في نفس اتجاه رأس الرجل.

الصورة ـ تعرفت عليها إحدى أعمال من غورينغ(9)

كان الرجل، برأس مرفوعة إلى أعلى نحو أعلى المبنى، ينظر إلى الصورة، محافظ علي ضغط أصابعه وعينه مفتوحتين على مصراعيهما، كما لو كان يحمل عدسة مكبرة غير مرئية. صورة الرجل، ذا رأس مائل إلى أعلى، ناظراً من خلال أصابعه بتلك العين المحمرّة، بينما تكاد تجعلك ترغب في الضحك، تنقل إحساسًا خاصًا بعدم الراحة.

بالنسبة للملصق ـ لم يكن هناك كلمة ولا شعار ولا رسم ولا رمز: لقد كان ببساطة وجه غورينغ بأبعاد هائلة، هناك، فوق أحد أهم المباني في وسط المدينة. من وضعها هناك؟ لماذا تم التصريح بذلك؟

فكرت في عائلة ستام، لكن ملصقاتهم كانت بعيدة كل البعد عن هذا الملصق. لم يحمل بصمته الرسومية، وإلى جانب ذلك، على الأقل للوهلة الأولى، لم يكن ذا معنى. لم تتناسب مع طريقة عرضها، والنقطة الحاسمة هي أن هذه الصورة الضخمة كانت باهظة الثمن.

- هل هو غورغينغ؟، سألت.

ظل الرجل صامتًا لبضع ثوان، مجبرة أصابعه الجفن على البقاء مفتوحًا. نعم، إنه غورغينغ.

لقد مات هذا الرجل منذ عدة سنوات. حوكم وأطلق عليه الرصاص وقتها. ما المقصود بذلك؟

قال الرجل ذو العين الحمراء بصوت منخفض: «إنهم مجانين»، ثم أمسك بالمبرد الصغير المحمول بيده اليمنى مرة أخرى، وكأنه يخشى عليه السرقة. ثم كرر «إنهم مجانين».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

البحث عن نبتة

لقد دعانا للذهاب إلى منزله، وأراد أن يرينا أعماله. شرع في تقديم نفسه إلينا. كان فنانا. وضع بطاقة عمل في يدي. لم أتمكن من قراءة محتواها. تحتوي البطاقة على فراغ وخط في المنتصف، لكن ليس هناك من حرف. ما رأيته كانت بطاقة صغيرة بيضاء بالكامل بخط أسود صغير جدًا في المنتصف. أوضح لي الرجل مشيرًا إلى الخط الأسود وكأنه يقرأ الاسم:

- ما هو مكتوب هناك اسمي: اجام جوش.

آجام جوش ـ فنان

ثم قال ضاحكًا: قد لا تظهر، لكن كلمة فنان مكتوبة بفاء رقعة.

لم أقل شيئًا، أعطيت البطاقة إلى حنّة ـ ثم أوضح لي:

- الأحرف صغيرة جدًا بحيث تبدو وكأنها خط، تجمعت البقع السوداء واختفت المساحات البيضاء. حتى أن الحروف تبدوا غير موجودة. قال آجام إنه عندما يتم تقليل الحجم، تختفي الاختلافات ـ يصبح الفرق بين الالف والباء أمرًا مثيرًا للسخرية تمامًا على هذا النطاق مع ضعف قدرة أعيننا. يبلغ حجم الحروف 0.001 ملم، لذا يبدو للوهلة الأولى أنها غير موجودة. الأبجدية، في ذلك البعد، تبدوا حرفًا واحدًا، رمزًا واحدًا؛ الي رمز، بعيدًا عن كل شيء، فارغ، ليس ذا معنى علي الاطلاق؛ يصبح الحبر حبرًا مرة أخرى، يعود إلى نقطة المنشأ، وبالتالي فإننا نعتبره لا شيء ولكن في الواقع يمكن أن يكون قد تمت كتابة شيء مهم هناك. حروف لا يتم تمييزها إلا تحت المجهر. بمعنى آخر، صديقي العزيز، فقط أولئك الذين ينتبهون لإسمي يمكنهم الوصول إليه. فقط أولئك الذين ينظرون بتمعن لفترة طويلة في هذا الخط.

ها قد وصلنا.

أخبرنا أن أحد أصدقائه كان لديه نظرة خبيرة لدرجة أن الاثنين كانا يلعبان، أحيانًا، لسنوات عديدة، القط والفأر: كتب جملة بهذا الحجم وكان صديقه لديه عيني نسر، هكذا وصفه آجام، دون استخدام أي جهار، أمامه، يركز ويحاول أن يستخلص مما يلوح للجميع سطر، جملة.

أرانا ورقة.

- تمتمت حنّة ـ سطر واحد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوضح آجام أن لا.

- هل يمكنك قراءة هذه الجملة؟

تفحصت الخط بعناية.

- أجبته، «لا يمكنني تمييز أي حرف».

- حسنًا، يركز صديقي هذا لبضع دقائق ثم يخبرني بالعبارة. يتأكد من الفواصل، من الأحرف الصغيرة من كل التفاصيل.

آجام، هو طفل وحيد، كان يعمل في الطابق الأرضي لمنزل يتألف الطابق الأول منه من غرفتين ـ إحداهما تنام فيها الأم والأخرى حيث ينام هو. مات الأب في الحرب.

سمعت حنّة كلمة أب. لوحظ من خلال رد فعلها. فتبسم آجام ثم نظر إلي.

- قلت له: «نحن نبحث عن والد حنّة».

لم يعر آجام أدنى اهتمام.

قال: «أرسم، ألون، أنحت وأخترع أشياء غريبة. قال أيضًا إنني أقوم بأعمال صغيرة ـ أعمال لا تتعدى في الغالب عُشر المليمتر، هل تعرف ما هو عُشر المليمتر؟ «رأسك ربما تعرف ذلك، ولكن عينك لا تعرف»، غمغم آجام كذلك.

دخلنا ورشته. غرفة واحدة فسيحة لكنها فارغة عمليًا ومرتبة جدًا. أتذكر أنني فكرت في احتوائها علي مساحة للقيام بأعمال بالحجم الطبيعي.

في منتصف الورشة، التي بدت وكأنها صحراء، مع عدد قليل جدًا من الأشياء التي يمكن للمرء عدها على أصابع اليد الواحدة، توجد طاولة بها مجهران هائلان، وبعض الأواني التي لم أتعرف عليها، وبعض البقع الصغيرة من مواد تبدوا للوهلة الأولى وكأنها بقايا قذارة، بقايا أي عمل آخر ذي أبعاد أكبر.

لقد بدوا مثل نقاط من الحبر أو شظايا صغيرة من الخشب، وكانت أبعاد هذه النقاط صغيرة جدًا لدرجة أنه حتى عند القدم لم يستطع ماريوش معرفة ما صنعت منه. سألني آجام هل تريد أن تلقي نظرة. أومأت برأسي إيجابًا، لكنني لم أفعل أي حركة تجاه هذا الأمر. كنت لا أزال في مرحلة محاولة فهم المساحة الخالية. أنظر حولي.

من الواضح أن آجام كان سعيدًا برفقتي. لقد ترك المبرد بجوار أحد الجدران.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل أن تنظر إلى هذا، أعطني قطعة الورقة التي أعطيتك إياها مؤخرًا.

أعطيته الورقة فوضعها تحت أحد المجاهر.

- قل وداعا للخط ـ «قال لنا».

وشجعنا على النظر إلى الورقة مرة أخرى قبل أن نضع أعيننا على المجهر.

نظرت إليه للمرة الأخيرة. كما لو كان وداعًا حقًا. كما لو كان شخص ما يغادر أو كما لو كنت أنا كذلك، أتذكر أنني كنت أفكر بشكل سخيف، أنني على وشك أن أصاب بالعمى.

لقد كان خطًا، لا يزال خطًا.

مشيت نحو المجهر ونظرت عبر عدسته. في البداية رقصت الحروف من جانب إلى آخر، لكنها استقرت على الفور وقرأت:

* لا تهزأ من أصولنا

نظرت بعيدًا عن المجهر، أدرت رأسي، ونظرت إلى الورقة مرة أخرى.

دعوت حنّة للنظر. كانت تشعر بالفضول ولكن بريبة.

قلت لها: «إنه يستحق العناء. ثم شرحت لها كيف تنظر وأشرت الي موضع الخط حيث سترى الحروف.

أصررت، لكن حنّة هزت رأسها خائفة من النظر.

فتح آجام، بأصابعه، عينه اليسرى مرة أخرى، ليكشف عن ذلك اللون القرمزي المثير للاشمئزاز إلى حد ما. ثم بعدما أبرز عينه قال:

- أنا أتفق مع الفتاة هذا ليس جيدا للصحة.

سألته إن كان بإمكانه قراءة السطر، كانت تلك هي الكلمات التي استخدمتها فقط: «هل يمكنك قراءة السطر بدون المجهر؟»

- أجاب، «نعم بالتأكيد».

- لا أستطيع كتابة السطر بدون المجهر وبدون أدواتي التفصيلية، لكن يمكنني قراءته دون أي مشكلة. ولا يستغرق الأمر دقائق مثل صديقي الذي أخبرتك عنه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخبرنا لاحقًا أنه كان يعاني من مشكلة في عين واحدة: كانت حساسة جدًا للضوء فقط عينه اليسرى، تلك التي اعتاد استخدامها في النظر عبر عدسة المجهر أثناء العمل. قال إن العينين اتبعتا مسارين مختلفين، كما لو كان لديهما تاريخ مختلف تمامًا، على الرغم من أنهما ينتميان إلى نفس الشخص ـ ثم قال آجام مبتسمًا. كل شخص لديه مشاكله ـ ومن ثم ضحك مرة أخرى قائلًا ـ لقد أرهقت عيني اليسرى بطريقة تمكنت من خلالها رؤية تفاصيل دقيقة لا يمكن لأحد تصورها، لكن الضوء والأحجام الكبيرة تترك انطباعًا سيئًا في عيني. ليس لنفسي، بل لعيني اليسرى. لرؤية لوحات إعلانية من هذا القبيل... ـ يا له من جنون، أليس كذلك؟، غمغم، في إشارة إلى لوحة الإعلانات الضخمة التي رأيناها في الجزء العلوي من المبنى، ما الذي يحدث؟ حسنًا، قال، لكن عيني اليمنى على صعيد آخر، إذا كان بإمكاني التعبير بهذه الطريقة، فقد مرت بأحداث أخرى. بشكل واضح: لم تمر بما مرت به العين الأخرى.

إنهما عينان أختان، لكنهما بالكاد يتعرفان على بعضهما البعض، عينان لا تشبهان بعضهما البعض. هل تعرف أعتقد احيانًا انه يتوجب علي إطلاق اسم قابيل وهابيل علي عيني، شقيقان علي درجة عالية من الاختلاف، مختلفان تمامًا لدرجة أنهما انتهي بهما الأمر إلى كره وقتل بعضهما البعض. لقد سئم الأطباء من نصحي باستخدام كلتا العينين للنظر من خلال المجهر، خاصة عند القيام بعمل يتطلب تركيز شديد. لكني لم أفعل ذلك قط. لقد اعتدت على العمل بعيني اليسرى. عمليا فقط العين اليسرى هي التي تنظر من خلال هذه العدسة. عندما تنظر العين اليمنى، فإن الأمر يكون من باب الترويح عنها، دعنا نسميه ذلك ـ ثم ضحك ـ من أجل المتعة. هذه العين، مشيرًا الآن إلى العين اليمنى، وبنفس الطريقة التي فعل بها مع الأخرى، كان يفرق الجفنين بأصابعه، أترى؟ (وفي تلك اللحظة، أظهر بعض الوقاحة، كان يتحدث معي فقط، وعمليًا يدير ظهره لحنّة)... هذه العين ليس بها أي احمرار من الذي أرعبك منذ قليل. والفتاة أيضا، أليس كذلك؟ (واستدار). ثم تابع، لأن هذه العين، العين اليمنى، دائمًا ما تكون مغلقة. كانت الرحلة التي قمت بها بكلتا العينين مروعة: أمضت إحداهما سنوات وسنوات في المحاولة، هذه، العين اليسرى، والأخرى أمضت سنوات في الراحة ـ ضحك آجام ـ . عندما أنظر من خلال المجهر ـ ثم قام بتجسيد الموقف، تظل العين اليسرى في حالة تأهب وتبذل الكثير من الجهد لرؤية كل ما هو دقيق جدًا، وتغلق هكذا وكان واضحًا كيف تقاربت جفونه ـ ولكن مع الحفاظ على فتحة صغيرة، شق صغير ينظر عبره، يبدو الأمر كما لو أننا بحاجة إلى إغلاق أعيننا لنرى بشكل أفضل.

وأنا لا أتحدث حتى عن الاختلاف في الديوبتر(10)، ولا المشكلات التي تصيب احداها دون الأخرى. كما قال لي أحد الأطبة إن العين اليمنى هي لرجل والعين اليسرى لرجل آخر. تخيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخصًا يعيش في مدينة كبيرة وعليه أن يحل مجموعة من المشاكل العصرية لحضارة عظيمة، بينما هناك شخصًا آخر يعيش في الطرف الآخر من العالم مع المشاكل التي عفا عليها الزمن؛ أن أحدهم لديه مشاكل من القرن التاسع عشر أو حتى من القرن الخامس عشر والآخر يواجه بالفعل مشكلات القرن الحالي. التفاهم بينهم غير ممكن على الاطلاق، عيناي لا تفهمان بعضهما البعض. احداها تهاب بعض الأشياء، والأخرى تخاف من أشياء أخرى. عيني اليسرى تخاف من الضوء وتقريباً غير قادرة على النظر للأحجام الكبيرة؛ على سبيل المثال، يؤلمني رؤية منظر طبيعي بهذه العين، يؤلم جسديًا، إنه حقًا مؤلم، لا بد لي من تغطيتها، لا بد لي من إغلاقها، ينتابني شعور بعدم الارتياح كما لو كانت تحاول دائمًا أن تظل مغلقة قليلاً، فهي دائمًا في هذا الوضع، هل ترى؟ ـ وأشار إلى عينه ـ تتردد دائما بين الغلق أو الفتح. ومن ثم، عندما أريد أن أرى شيئًا ما، في مستوى أكبر، يجب أن افتح جفنيّ بأصابعي. بدون مساعدة خارجية لم يعد يعمل. لم تعد العين تفتح من تلقاء نفسها. لا بد لي من اجبارها بأصابعي. إن الأمر يتعلق حقًا بالإجبار، نوع من سوء المعاملة، أعترف بذلك. عندما أفعل ذلك، ثم فعله مرة أخرى (بدا أنه يستمتع بفعل تلك الحركة المتمثلة في الابعاد بين جفنيه وإظهار عينه الحمراء الهائلة) ـ عندما أفعل ذلك أشعر جزئيًا بأنني ابتعد عن العين، أشعر بفعلي القليل من الشر، كما لو كنت أجبر شخصًا ما على النظر إلى شيء لا يريد رؤيته، صورة مقززة. تريد عيني اليسرى فقط رؤية التفاصيل، الأشياء الصغيرة، بطريقة ما يجب أن أحترم حريتها، إذا سمحت لي بالتعبير عن نفسي هكذا، لكنني لا أستطيع. أحتاج كلتا العينين لفهم موضعي. ثم أكمل آخام، كنت أقول لك، أنه عندما أكون في الشارع، عندما أخرج، عندما يكون من الضروري رؤية شيء ما علي مسافة بعيدة ومدى غرابة هذا التعبير بالنسبة لي، عندها تبدأ عيني اليمنى وغريزيًا في العمل، والأخرى في الاتجاه المعاكس إذا لم أجبرها، فإنها تغلق.

يبدو الأمر حقًا كما لو لم تكونا عينان، بل ساقًا وذراعًا، وظيفتان مختلفتان تمامًا. عيني اليسرى جيدة، إنها حقًا جيدة جدًا، رؤية الصغائر. في هذا الخط يُرى (وأخذ آجام الورقة)

الجملة هي «لا تهزأ من أصولنا»

لنفترض أن الأمر علي هذا النحو إلى حد ما ـ عيني اليسرى مستعدة للعمل بشكل جيد في ورشة العمل هذه، وتم إعداد عيني اليمنى لبقية احتياجات الحياة. بينما عيني اليسرى موهوبة نوعًا ما، فإنها ترى أشياء رائعة حقًا، كما لاحظت بالفعل، عيني اليمنى طبيعية للغاية؛ في الخارج مثل الآخرين، وربما أسوأ قليلاً. ليس لدي سوى عين واحدة لأرى المدينة وهي عين عادية. هذا هو وضعي الوجودي، إذا كان بإمكاني التعبير عن نفسي بهذه الطريقة ثم ضحك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حالة غير محببة. أنا متأكد من أنك عندما رأيتني لأول مرة اعتقدت أنني مجنون. حسنًا، كما ترى، لست كذلك. في أفضل الأحوال، سأقبل أن يتم تصنيف عيني في أي علم أمراض يتجاوز المشكلات العضوية وينتقل إلى مستوى تكون فيه المصطلحات العقلية مناسبة. بعبارة أخرى، يمكن القول، أقبل ذلك، أن عيني مجنونة بطريقة ما، وأنهما فقدتا عقلهما، وكلما ذهب كل منها بطريقته الخاصة فيما يتعلق بالاداء، فإنهما يظهران نوعًا من الفصام. هذا ليس تشريحيًا، ولكنه وظيفيًا ـ كما ترى، عيني متوازيتان تمامًا. حسنًا، عيني اليسرى تساعدني على ألا أصاب بالجنون بسبب العالم وعيني اليمنى حتى لا أصاب بالجنون بسبب ورشتي. هذه، العين اليسرى، هي الجزء الخاص بي، تفردي. في أعماقي، عزيزي، ناداني آجام، «لم أقتل نفسي بعد لأن أولاً، لم تمت أمي بعد، وثانيًا، لدي عين يسرى لم يسبق لها مثيل وقد هربت من العالم، أو كذلك أشعر. هربت هذه العين من العصر الذي نعيش فيه، خرجت، تحيا بيئة أخرى، دخلت زمنًا آخر. إنها عين متدينة، بالنسبة له هذا هو سبب هروبه، إذا كنت تريد رأيي، إذا ما كان لديك على الأقل جزء واحد من جسمك معزول قليلاً عن العالم، وإلا فلن تنجو.

أشعر أن تلك العين تعاني من سوء المعاملة. إذا ما بدا أن شخصًا ما يجلب باستمرار كميات هائلة من الواقع عن طريق السكك الحديدية، كما لو كان هذا له وزنًا حقيقيًا، مصنوع من مادة معينة، وكان شخصًا ما، مؤسسة مجهولة المنشأ والغرض، مسؤولةً عن الحفاظ على الإمدادات. أعترف أنني استعر بداخلي شك معين من قطارات الشحن. لا أحد يخبرنا بما تحمله القطارات. ما أعرفه هو أن قطارات الشحن هذه لا تتوقف أبدًا. أحيانًا أحلم بكوابيس عند تفكيري فيما سيتم تفريغه في نهاية المسارات، في أي مكان لا تصل اليه العيون العادية. ثم قال فجأة، «لكن انظر ربما شعرت ببعض الانزعاج من ناحيتي وخاصة تجاه حنّة، بسبب إخراجي لكم من هناك بالفعل، لكن انظرا، قال، مستخدماً المثنى لأول مرة منذ وقت طويل، أعار الانتباه لحنّة، انتباه طفيف وسطحي، ببساطة إضافة حرف الالف، ولكنه حرف مهم منعني من مغادرة المكان، لأنني استمعت إليه بفضول، ولكن كان من فرط الوقاحة عدم اهتمامه بوجود حنّة. ربما لاحظ وها هو، بعد ذلك، يلتفت إلى حنّة، متبسمًا، يحاول التواصل معها وداعيًا اياها الي النظر اليه.

قال: لقد رسمت، لن تصدقوا ذلك، معركة شهيرة مع آلاف من الخيول وآلاف من الرجال على الأقدام. ها هي المعركة التي رسمتها ـ وأشار إلى نقطة صغيرة على طاولة عمله، نقطة وضعها تحت المجهر. ضحك «لقد رسمتها بألوان مختلفة». قال مخاطباً حنّة الآن حصرياً: «انظري، انظري هنا يا فتاة، معركة مع آلاف الأحصنة والرجال، في ثلاثة ملليمترات». ابتسمت حنّة لكنها هزت رأسها نفيًا. ومع ذلك، على الرغم من إرهاقي، إلا أنني ما زال يملأني الفضول وأميل أكثر الي النظر إلى هذه النقطة للمرة الأخيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرّبت عيني اليمنى من عدسة المجهر.

- وانظر إلى هذا أيضًا.

نظرت من خلال المجهر. لقد كان تمثالا.

- قال آجام: «حديقة يابانية».

نظرت إلى تلك النقطة بالعين المجردة.

ومرة أخرى بواسطة المجهر.

«على يمينك»، أوضح لي بينما كنت واضعًا عيني أبحث عبر العدسة، إذا نظرت عن كثب، هناك نوعان من شجرتا بونساي النموذجية المصنوعة من الخشب الخالص. على اليسار، سترى تمثال زهرة صغير، زهرة يابانية نموذجية، أزاليا ساتسوكي حمراء. وفي الخلفية إلى اليسار ـ تابع قائلاً كما لو كان يتحدث عن منظر طبيعي هائل وليس، بشكل موضوعي، أقل من ملليمتر من المادة ـ في الخلفية على اليسار سترى حيوانًا، قطة، من النوع الذي يضعه بعض الناس في زجاجات حتى لا تكبر.

سلكت عيني الطريق المشار إليه، مثل شخص معصوب العينين، يتبع توجيهات *إلى الأمام، اليمين، الخلف*، شخص آخر بعينين غير معصوبتين، يرى كل شيء وبالتالي يسيطر علينا. كان هذا، في الواقع، ما شعرت به: مسيطر علي بواسطة أجام، مطيعًا أوامره كما لو أنه علي دراية منذ فترة طويلة ما أريد أن أجده. توجهت. وكنت، كما هو الحال، معصوب العينين.

- أسفل الحيوان بقليل، إلى اليسار، إذا نظرت قليلاً الي الاسفل، فسترى نبات ساكورا آخر، زهرة الكرز. أليست جميلة؟

نعم، وجدتها: نبتة جميلة. والحقيقة أنه حتى لو لم تدرك حتّة ذلك، لم نكن نبحث عن والدها منذ وقت طويل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل العاشر

الوزن والموسيقى

1

أهمية الوزن

فور علمي بزيارة المصور، قررت مغادرة الفندق. لم يتم إقرار المغادرة في ذلك الوقت بعد، لكن الأمر أخافني فأسرعت العملية.

كنا قد انتهينا للتو من عملية الحساب مع رافائيلا عند المدخل عندما صادفنا تيريزين العجوز.

رحب بنا، وأعطى حنّة ابتسامة صريحة.

- هل ستغادران؟

- أجبت بنعم.

انتظرنا في صالة الفندق. خرجنا نحن الثلاثة معًا ـ حنّة وتريزين العجوز وأنا.

كان ضباب الصباح يخفينا في الخارج. ضعف الرؤية يعزلنا، كما لو أن شخصًا ما، بقطر ثمانية أمتار، كان يحمينا من الأشياء وتطفل تلك الاشياء، ويغطيها، وهذه الظاهرة الجوية المبتذلة جعلتنا أقرب ماديًا.

- هل انت ذاهب الى محطقة قطارات إيثكيردا؟ ـ سألني.

- نعم سنذهب إلى نفس المكان ـ أجبت.

عجوز يبلغ من العمر سبعين ربيعًا، ربما أكثر، عندما يكون السن بعيدًا جدًا عن عصرنا، يتحول هذا الاختلاف إلى شكل متباين من المساحة في الفراغ الفسيح، كما لو هناك شخص علي بعد أمتار مني ولا أتمكن من رؤيته جيدًا، على الأقل بهذا المفهوم، انهم سبعين عامًا، سار العجوز تيريزين بثقة شخص لا زال لديه العديد من المهام لإنهائها. يعيش في أفضل حالاته. ذا طول طبيعي، ليس بطول موبيوس؛ فقط أظافر الأصابع المتسخة هي التي كشفت عن إهماله للنظافة. الوجه النحيف والأنف البارز والحواجب تكافح حتى لا يضيع اللون الأسود تمامًا، ملابس بسيطة؛ باختصار، لقد كان رجلاً عجوزًا يملؤني بالثقة ـ كان واضحًا منه معرفته بالفعل بجميع الظروف والمواقف، وبالتالي، على الرغم من أنه لا يزال لديه اثنان أو ثلاث إرادات، قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد رغبته الملحة التي لدى أولئك الذين ما زالوا لم يصلوا إلى الحد الذي كان، بوضوح، قد وصل إليه هو وعاد. ليس فيه من شيء مفرط أو يسعى للظهور؛ كل شيء، على العكس تمامًا، يتبع إيقاعًا ثابتًا، من البداية، مثل أ، ب، ث؛ ولكن هو من يحدد بدايته بطريقة عملية وسريعة، متخطياً، إذا أمكن القول، العديد من المبادئ الأخرى الممكنة، السابقة، والمبادئ الأكثر رسمية. على سبيل المثال، بيننا، لم نتبادل أكثر من بضع تحيات مهذبة خلال تلك الأيام، عندما اعتدنا اللقاء في الفندق، ولكن في ذلك الصباح، دون أي متاعب، دون أن أشعر بأي نوع من التطفل، في وقت معين شرع في التحدث. النقطة التي كنت قد حصلت عليها بالفعل كانت نتيجة نوع من الدراسة الغريزية. لقد أدرك أن حنّة وأنا لن نشكل أي خطر عليه بأي شكل من الأشكال؛ لقد أدرك أننا كنا في حالة بحث وأن تلك الحالة هي حالة عابرة، وأن هذا الوضع العائم لشخص يبحث عن شيء ما، تمخض عن فضول وتوافر اكتشفه العجوز تيريزين فينا. لقد لاحظ أن حالتي العامة، وأن طريقة كلامي، كانت نبرة أمل ـ كنت متاحًا لأرى وأستمع. في غضون دقائق قليلة كنا نتحدث بشكل مألوف أو، على وجه التحديد، كان يتحدث، كما لو أننا، خلال تلك الأيام في الفندق، كنا دائمًا معًا في تعايش مستمر.

بدأ تيريزين بالإشادة بالوزن الخفيف الذي نحمله.

قال: «هناك أناس يستغرقون قرونًا لفهم الأمر»، ثم ضحك كما لو أنه قال للتو نكتة.

ضحكت حنّة أيضًا، وكانت تبادل دائمًا ضحكات الآخرين بضحكة. نظر إليها العجوز تيريزين بتعاطف.

قدمنا أنفسنا ـ قال اسمه، ولم أستطع حفظه ثم علي الفور أضاف أن رافائيلا في الفندق اعتادت دعوته بتيريزين، تيريزين العجوز، وهذا الأمر لا يعنيه.

- قال: «يمكنك مناداتي بذلك».

ثم شرح كيف كانت مسألة الوزن مهمة.

أحمل حقيبة على ظهري بها حاجاتي الأساسية ومتعلقات حنّة، بما في ذلك الصندوق الصغير الذي يحتوي على تمارين للأشخاص ذوي الإعاقات الذهنية. لم تكن حنّة ترتدي أي شيء. قال العجوز تيريزين: «ألم تروا غرفتي، عندما تعودون أدعوكم لزيارتها. غمغم سترون كم هي فارغة». سأخبرك بما يوجد في غرفتي: مرتبة، أربعة كتب، أحدهم تعرفونه بالتأكيد؛ ثم كرسي وطاولة خشبية وشراشف وبعض الملابس ليست كثيرة. زوج من الأحذية، بجانب هذه — زوج آخر من الأحذية بالكاد أرتديه. ثم لدي أربعة أشياء صغيرة، لن أفصح عن ماهيتها، أعتذر؛ بعض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأوراق وبعض الأقلام... وهذا كل شيء.

تابع تيريزين «طوال هذه السنوات، أمر علي درجة عالية من الغرابة، تفقد الغرفة يومًا عن يوم بعض العناصر، لم يدخل أي شيء وخرجت بعض الأشياء. لقد كانت تفقد وزن، إذا جاز التعبير. عند دخولي الأخير هنا ـ ربما منذ عامين، عندما كان واضحًا لمستضيفيّ الودودين أنني سأبقى، وأنني لن أتخلى عنهم ـ طلبت إزالة هيكل السرير من الغرفة. بادرة غير مجدية، بلا شك، لأنه ليس من خططي أن أحمل سريرًا في يوم من الأيام. ظهرت أيضًا خردة أخرى كانت هناك، وهي غير مهمة لدرجة أنني لا أتذكر ما كانت عليه. وأضاف مبتسماً أن الأشياء كانت تخرج، كنت أطلق لها العنان، هل تعلم أنه لسنوات عديدة، قبل الحرب، كنت في مكان كان علي فيه، من وقت لآخر، طرد أحدهم؟ طرد شخص ليس بالأمر السهل، حتى لو كان أكثر شخص نكن له كرهًا في العالم؛ إن طرده الي الشارع يثير مشاعر رجل مثلي ـ ثم عاود الضحك مرة أخرى ـ . لمدة عقدين من الزمن ربما كنت قد رفدت، بعد محادثة كنت فيها أمام الرجل الذي أوشك علي رفده كما أنا أمامك الآن، كان علي أن أطرد، كما كنت أقول، ربما أكثر من أربعة وعشرين رجلاً. حسنًا، بعد ذلك، فإن طرد الأشياء، إرسالها إلى الشارع، التأكد من أنها لن تصادفنا مرة أخرى، هو أمر سهل جدا. هل تعلم أن الغالبية العظمى من الأشخاص الذين طردتهم لم يحدث أن رأيتهم مرة أخرى؟

توقف في منتصف الرصيف وأخذ ورقة وقلم من جيب معطفه.

- «سأخبرك كم تزن غرفتي». ـ ثم سألني ـ ، «هل فكرت في ذلك من قبل؟ في وزن كل شيء في الغرفة؟»

شرع في إعداد القائمة، قائلاً بصوت عالٍ الوزن الذي يتوافق مع كل عنصر، ثم بدأ في التسجيل على الورقة:

مرتبة ـ 15 كجم

طاولة ـ 4 كجم

كرسي ـ 2 كجم

4 كتب ـ 2.5 كجم

ملابس ـ 1 كجم

أشياء مختلفة ـ 1.5 كجم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي النهاية كتب:

أنا ـ 63 كجم

- قال تيريزون، «القاعدة الأولى هي أن وزن محتويات الغرفة أقل من وزننا. إنها قاعدة أساسية. نوع من المبادئ التنظيمية. بالنسبة لي أيضًا، لقد وضعت الحد الأقصى: يجب أن يكون وزن ما في الغرفة أقل من نصف وزني، وهو ما حافظت عليه لسنوات عديدة. ثم أوضح، أنا أحاول أيضًا الحفاظ على ثبات كل من الأوزان ـ وزني ووزن الأشياء في الغرفة. عندما يتم تغيير هذه النسبة يكون ذلك بسبب وجود خلل ما في جانب دون الآخر. هذا هو وزني الثابت ـ 63 كجم ـ إذا فقدت المزيد من وزني فهذه علامة على أن شيئًا ما ليس على ما يرام، علامة على المرض. اكتساب الوزن ليس جيدًا بالنسبة لي ـ لم يعد ممكنًا بالنسبة لي. أما بالنسبة لوزن الأشياء في الغرفة، فهو يتبع نفس المبدأ: لقد كنت أحاول الحفاظ عليه ثابتًا لسنوات عديدة ماضية.

ثم تابع قائلًا: «الوضع لا يستحق الدوران في مسافات طويلة، فان الذي علي المحك هو وزننا، فوزننا هو ما يتعين علينا نقله من مكان إلى آخر. عندما نضطر إلى الهرب، قد يمنحنا ذلك الوقت لحمل شيء واحد أو اثنان، لكن هذا أمر قليل الحدوث. السرعة التي نأخذ بها أجسادنا ونهرب من مكان تكون فيه حياتنا في خطر، تلك السرعة تعتمد كثيرًا على هذا الفعل الذي ذكرته، على إفراغ المساحة من حولنا. كلما قل وزني، حتى كيلوغرام واحد، ولا يوجد شيء مجرد هنا، ضع في اعتبارك، أنا لا أتحدث عن الميتافيزيقيا، صدقني، إنه مجرد سؤال مادي وموضوعي، كما كنت أقول:كلما قل الوزن حول أجسادنا، كلما كان فرارنا أسرع، وكلما كانت غريزة البقاء لدينا أقوى. بالطبع، في حالة الطوارئ لن يرغب أحد في حمل شئ، في حالة الطوارئ سيحاول الجميع الفرار بأقصى سرعة؛ السؤال هو الوقت الذي يستغرقه قرار التخلي عن كل شئ. سيكون الوقت الذي يستغرقه هذا القرار حاسمًا، سيتأخر البعض، والبعض الآخر لن يطيل الوقت. والوقت الذي أتحدث عنه لا يُقاس بالدقائق أو بالثواني، سيقاس بحوالي جزء من الألف من الثانية؛ أحيانًا ننجو عبر الهروب من المكان الذي نحن فيه لأننا قررنا في جزء من الثانية أن نهرب وفقط، ونركض بأسرع ما يمكن، دون النظر إلى الخلف؛ وهذا القرار، يكون بالركض، والابتعاد عن المكان، إذا استغرق الأمر جزء من الألف من الثانية آخر، يمكن أن يكون قاتلاً. هل آخذ أشيائي أم لا؟ لا! في النهاية، في النهاية، القرار هو نفسه دائمًا: لا نحمل أي شيء، ولكن أن يكون القرار سريعًا قدر الإمكان، في تلك الأجزاء من الألف من الثانية التي توفرها لنا سنوات وسنوات من ممارسة عملية حساب الأوزان تلك ضرورية. لا بد أنك لاحظت الآن أنني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهرب دون أي شيء.

- انظروا ـ ثم شرع في تسجيل الحسابات على الورق ـ للتبسيط، سأسمي كل هذه بالأشياء. هذا صحيح، أيعجبك الاسم؟ حسنًا، ثم قام بالحسابات:

مرتبة ـ 15 كجم

طاولة ـ 4 كجم

كرسي ـ 2 كجم

4 كتب ـ 2.5 كجم

ملابس ـ 1 كجم

أشياء مختلفة ـ 1.5 كجم

وفي النهاية كتب:

أنا ـ 63 كجم

كما ترى، إنها نسبة جيدة.

وبعد لحظة صمت، تابع.

- هناك شيء لم أضعه هنا وأشار إلى جزء من الاشياء ذات القيمة المحددة، لكن من حيث الوزن ليس ذات أهمية.

يقف ثلاثتنا على الرصيف. استدرت أنا وحنّة نحو العجوز تيريزين، نستمع إليه. (حنّة، بالطبع، كانت تفكر في شيء آخر، لم تكن تستمع حقًا).

تابع قائلا: «إنه شيء مثير للإعجاب، هل حاولت أن تزن المال؟ تزنه حقًا: أن تضع بعض النقود على الميزان وتزنها. هل جربت ذلك؟ حسنًا، لقد جربت ذلك، واستطيع إخبارك أن وزنها لا يكاد يذكر. لقد أدركت ذلك أيضًا منذ وقت طويل. فائدته الكبيرة ترجع إلى خفته. خفة تثير الإعجاب. وفي هذا الخصوص، اختراع محبط للغاية، دعنا نسميه هكذا. الامكانيات التي يسمح بها في مقابل وزنه تكاد تكون غير متناسبة بشكل غير واقعي. دعني أخبرك، يبدو أنه اختراع غير بشري. هذا فقط. هل تعرف كم تزن واحدة من أكثر فواتيرنا قيمة؟ الميزان العادي لا يشير حتى إلى وجود أي شيء. لا شيء، الميزان لا يتحرك. لا يشعر بوجود شيء على الإطلاق، إنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأمر مدهش تمامًا، كما لو لم يكن هناك شيء. لكن في الحقيقة هناك. واحدة من أثمن عملاتنا، ورقة تكفي لشراء طعام، إذا ما تم إنفاقها بشكل جيد، ما هو ثمنه، يكفي لثلاثة أشهر لشخص واحد، أو أربعة أشهر؟ حسنًا، تذكرة تكفي لشراء، دعني أتحدث إليكم على هذا النحو، هذا يكفي لشراء أربعة أشهر الي الأمام، يتعلق الأمر بشراء الوقت، والباقي وابتسم ـ على الرغم من كل شيء، ليس بنفس الأهمية، مثلما كنت أقول، ورقة تكفي لشراء أربعة أشهر تزن، لقد وزنتها بالفعل، شئ تافه، رقم لا يمكن حتى رؤيته. كما أخبرتك، الميزان العادي، الميزان المستخدم لبقية الأشياء البشرية، لا يشير إلى وجود أي شئ فوقه، كما يحدث عند محاولة وزن شبح؛ مرئي، ولكن تقريبًا شبح لا يشغل أية مساحة. اذا ما تطرقنا الي الموضوع أكثر من ذلك فسنضطر الي الدخول في القضايا الدينية ـ قال، وضحك، أخف وزنا وأكثر صلة من ذلك، لا يوجد سوى ذلك الشيء الآخر الذي نتحدث عنه جميعًا؛ أو أننا جميعًا نحاول تجاهله، ولكن هذا هو مركز كل شيء. يمكنك أن ترى تمامًا أنني محق في القول إن المال، إن لم يكن غير إنساني بهذا المعنى، هو على الأقل على الحد الفاصل بين ما يمكن للرجال فعله وما يمكن للرب فعله. ربما يصاب أحدهم بالصدمة مما قلت، لكنني أدركت بالفعل أنه حتى عندما كنت صغيرًا جدًا ـ ينظر الي العجوز تيريزين في عيني مباشرة لأول مرة ـ أدركت بالفعل أنني ضربت بفراستي عرض الحائط وعلى الأقل بالنسبة اليها زي الفراسة لم أعد احتفظ به. في بعض الأحيان ـ تابع تيريزين ـ هذا ما أعتقده بالضبط: أتأرجح بين رؤية المال على أنه اختراع شيطاني أو إلهي، وليس بسبب استخدامنا له، ولكن ببساطة بسبب وزنه، بسبب المادة المصنوع منها. حسنًا، «ابتسم تيريزين»، على ما يبدو، تم اختراعه بواسطة البشر.

وهل لاحظت أنه عندما نستخدم العملة الأكثر قيمة ثم نتلقى الباقي، فإن الأموال التي نتلقاها تكون أكثر وزنًا على الرغم من أن قيمتها أقل بشكل واضح؟ هل أمعنت التفكير في هذا؟ ثم قال ضاحكًا، يجب أن تفكر في الأمر، سيد ماريوش.

استأنف تيريزين المسيرة وتبعناه كأننا مجرد مرافقين له. بالنسبة لي: أحببت الاستماع، لقد خُلقت للاستماع.

- هل لديك وقت؟ سألني، وتوقف فجأة في زاوية. شعرت أن حنّة قد فوجئت بفعلته تلك، لكنني أجبت بنعم.

قال مشيراً إلى شارع على يسارنا: «أود أن أريكم مكانا. ليس بعيدا. بضع دقائق سيرا على الأقدام.»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذلك، تبعناه متجهين إلى اليسار، وبالتالي نبتعد عن محطة القطار. على الرغم من كل شيء، كان لدينا الوقت.

قال في وقت لاحق، مستديرًا إليّ: «رأيت فيك على الفور علامة قلة الوزن. إنها إشارة أعتبرها حاسمة، كما قد تكون تخيلت. رأيت أننا من نفس العرق من حيث الوزن. حتى أنني أود أن أقول إن السمة التي تقربنا أو تبعدنا ـ هو أننا من العرق الذي فيه الأشخاص يحملون أقل ما يمكن. انظر ـ قال مشيراً إلى حقيبتي، إذا كنتم محملين بشكل كبير فلن تتمكنوا من تغيير المسار الآن. تتغير الطبيعة من حولكم، تختفي المعابر، هل لاحظت ذلك؟ إذا ما سرنا مثقلين بالأحمال، فسننتقل من نقطة إلى أخرى بأقصر الطرق وأكثرها راحة. لدينا هدف. هناك، في رؤسنا، لا يوجد معابر، نحن نسير دائمًا على الطريق الصحيح، ولا يوجد وقت لاتخاذ القرارات. حتى عندما نتجه الي ليسار عند مفترق طرق، فإننا لا نتوجه لأننا غيرنا رأينا، ولكن لأن هذا هو الطريق. يسعدني أن أعرف أنه بالنسبة لك، على العكس مني، لا يزال هناك مفترق طرق بداخل المدن ـ قال، وأجبت بابتسامة.

اتجهنا إلى شارع أقل ازدحامًا وانعطفنا يمينًا عند زاوية فيما لاح أنه ممر مفاجئ إلى بلد آخر. من لحظة إلى أخرى، تغير مجالنا البصري تمامًا. انتهت المنازل وتقدمنا لمسافة عدة أمتار في حقل مفتوح. في النهاية، لاح في الأفق مبنى بدا وكأنه مبنى كبير مهجور وكان هذا هو المكان حيث نتجه.

- سأريكم أحد المحفوظات القديمة للمدينة ـ قال تيريزين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

نزهة مع تيريزين

في وسط حقل مفتوح بالكامل، أنقاض مبنى.

ارتعد ماريوش: تقدموا، وبداخله، مع كل خطوة، الآن على أرض صلبة، دون أن يتسلق درجة سلم واحدة، دون أن يكون هناك أية حفر، بداخله تنامي شعور بالدوار. نفس الشيء، دوار غبي، غير مناسب للموقف، شعر ماريوش، بدوار أفقي، كما لو أن خوفه من السقوط لا يزال يستعر بداخله الي الآن، لكن الحفرة، الجاذبية الشريرة، تنبع من الأعماق، من اللحظة، اليوم والساعة المحددين اللذين فيهما تم انشاء هذا المبنى. كان الأمر مثل ذلك الشعور الذي اعتراه عند تسلقه السلم بدون حاجز جانبي ـ ذلك الألم الناجم عن الغياب المادي والملموس لمادة موضوعة تفرق بين جسد حي وجسد ميت ـ تم استبداله الآن بالإحساس بأن شخصًا ما قد أزال الحماية الزمنية. الخوف من السقوط يحل محله الخوف من أن يدفعه شيئًا ليس له وجود، وكأن ما لم يعد موجودًا يمكن أن يُطلب وجوده. لكن، بالطبع، كان شعورًا خافتًا وقصيرًا، سرعان ما تجاوزه ماريوش.

كان تيريزين العجوز في المقدمة، وعلى الرغم من كل شيء، فقد نقل الاستقرار إلى المجموعة. كان ماريوش قلقًا بشأن حنة وعدم استواء التربة المستمر. كانت الأرض مغطاة بالعشب، ولكن عقب تحذير من تيريزين، لاحظ ماريوش لبضع ثوانٍ صندوقين صغيرين نصف مدفونين بالفعل ومغطين بالطين.

- شرع تيريزين في الشرح، «فهرس الملف».

كانت أوراق من ملف تشبه إلى حد بعيد، من حيث الحجم ونوع الورق، البطاقات التي كانت في حوزة حنة عندما وجدها ماريوش. ملفات عادية، للتوثيق. انحنى ماريوش على إحدى البطاقات، قطعة من الورق كان من المؤكد أنه تم تخصيصها، في بعض الأحيان، كوثيقة، كشيء يجب الاحتفاظ به، شيء يستحق الاهتمام والنظر اليه بغرض انقاذه ـ عكس تمامًا ما يلقى في القمامة. لذلك، علي بعد بضعة سنتيمترات من حذاء ماريوش الأيمن، مدفون إلى حد كبير في الوحل، توجد ورقة يبرز منها فقط الجزء الأيمن العلوي ـ مثل ذراع لا تزال تطلب المساعدة، لم يستسلم حتى تلك اللحظة وما زال يحاول، من خلال حركة الأصابع، يتراءى للمارة أن هناك شيئًا يريد أن يستمر في الوجود في عالم البشر. هكذا رأى ماريوش أيضًا تلك القطعة التي لم تستسلم لتغطية الأرض والعشب ـ كما لو كانت فعلًا عن قصد وليس محض صدفة. كان هناك،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشكل غريب، كائن هجين، شبه مثير للاشمئزاز.

مكتوب على الجزء المرئي ـ أقل من ربع حجم الرمز المميز ـ رقم في الزاوية اليمنى العليا، وكان هذا الرقم علامة بشرية واضحة؛ وتحت هذا الرقم، بضعة أسطر إلى الأسفل، كانت بعض الأحرف لا تزال مرئية ـ ليست كلمات كاملة، أو عبارات بل أقل بكثير، ولكن بعض الأحرف: أحدها «م»، ثم «ست» مغا، ثم في السطر الأخير، «أ»، و«أ ن»، ثم «ك» ـ وكانت تلك الحروف هي التي بقيت، كما لو كانت مصنوعة من مادة أكثر مقاومة، أو، كما يعتقد ماريوش، كما لو أن، في الوقت الذي كتب فيه كاتب الملف تلك الملاحظة، قبضته، وزنه بالكامل قد ضغط بقوة أكبر علي قبضته خلال كتابة هذه الحروف، ولذلك لاحظ ماريوش الحروف الباقية كشواهد علي وجود كلمات، وعبارات، رغم أنها، أكثر من ذلك، تعد بقايا نية وإرادة.

لم يكن لدى ماريوش الوقت الكافي للتفكير في ما يعنيه هذا الكائن الهجين، هذا الرمز المميز، ولكن في الواقع كان هناك شيء بدا له بعد ملاحظته لفترة من الوقت أنه كائن جديد وفي نفس الوقت قديم جدًا؛ وكان الخليط في نفس المادة في فترتين بعيدتين جدًا أحد خصائص هذا العنصر. أصبح من الواضح الآن لماريوش أن هذا الكائن، مثل بعض الوحوش التي تم تصويرها في العصور الوسطى، يحتوي على جزء علوي بشري وجزء سفلي مصنوع من مواد أخرى أقدم وغير بشرية.

توقفت حشرة صغيرة، في غضون ذلك، فوق الجزء البشري من الرمز المميز، اسعد ماريوش، الذي كان واقفاً بالفعل على قدميه، حماس حنّة تجاه هذا الغزو الصغير. على الرغم من ذلك، دعاهم العجوز تيريزين.

مكررا حركات تيريزين، نظر ماريوش من النافذة حيث لم يعد الزجاج موجودًا. في الداخل، جناح ضخم مهجور، فارغ عمليا.

- قال تيريزين: «إذا نظرت إلى الجدار على الجانب الآخر، فلا يزال بإمكانك رؤية الدرج على الأرض».

أوضح العجوز تيريزين أنه يتردد على هذا المكان بانتظام لمدة عام.

- في ذلك الوقت كنت أقوم بالبحث عن عائلتي، عن أصولها، كما ينبغي أن يحدث للجميع في أي مكان عند بلوغهم سن الرشد. مكان حفظ الوثائق هذا ـ كما قال تيريزين ـ يحتوي على الكثير من الوثائق في هذا السياق، وكل من يرغب في فهم أصوله يأتي الي هنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن ما أراد تيريزين أن يرينا إياه كان شيئًا آخر. كان جدارًا، أحد الجدران العديدة التي ما زالت قائمة؛ على ذلك الحائط يمكنك رؤية نغمة ملحمة.

«هل يمكنك قراءة الموسيقى؟» ـ سألت تيريزين. هز رأسه نافيًا ثم قال إنه تعلم تلك الأغنية هناك، أمام ذلك الجدار.

- وتابع تيريزين: «لابد أن شخصًا ما كتب هذه الملاحظات على هذا الجدار منذ حوالي ستين عامًا».

قال تيريزين ـ لقد أجريت الكثير من الأبحاث ولم أجد لها أي نسخة في مكان آخر. قد يكون من موسيقي غير معروف تقريبًا أو حتى من أحد الهواة، بالإضافة إلى أنه ليس لحنًا جذابًا بشكل خاص، ثم قام بتدوين الملاحظات القليلة التي أمامنا، بعضها تم محوه بالفعل، والبعض الآخر مغطى جزئيًا أو كليًا باللبلاب الذي نما هنا. في المنتصف؛ اختفت ملاحظات أخرى أيضًا، لأن الجدار، في الجزء الذي كانت فيه بقايا الموسيقى، كان يحتوي على بيت أقل،حيث أن قطعة من الحائط قد انهارت.

قال تيريزين: «هذه الموسيقى، هي تلك التي اعتدنا إطلاق عليها صفير لا نهائي عندما كنت في السجن. ثم اضاف بطريقة جامدة: «الموسيقى مفيدة جدا».

بدأ العجوز تيريزين بإطلاق الصفير، الآن من البداية إلى النهاية، باللحن، خلال بضع ثوان شعر ماريوش بالخجل من حالة التفاهة التي وقع فيها ذلك الرجل.

ومع ذلك، كانت حنّة سعيدة بسماعها، غيرت ملامح وجهها إلى شخص يسمع شيئًا مألوفًا ـ وكان وجهها هو الذي أيقظ ماريوش: تلك كانت الموسيقى التي استمع إليها هو وحنّة، أولاً بفرحة، ثم مع القليل من الخوف، قادمًا من الجانب الآخر من باب غرفة نوم تيريزين القديمة في الليلة التي تاه فيها ماريوش في الفندق.

قال تيريزين لاحقًا أن، نظرًا لتدهور حالة الجدار كانت قد اختفت العديد من الملاحظات بالفعل (في مكان ما، قال العجوز، هنا، في وسط العشب مدفونًا بالكامل، يجب أن تكون هناك بعض الملاحظات من هذه الأغنية)، تلك الموسيقى إذن، إذا لم تكن في الواقع، كما كان يعتقد هو، مسجلة بالكامل في مكان آخر، فستضيع إلى الأبد ـ لأنه هو فقط من يحفظها عن ظهر قلب. أخبرنا لاحقًا، بعد ذلك مباشرة، أنه لا، ما كان يقوله لم يكن صحيحًا تمامًا، لأنه في السجن، كما قال سلفًا، لن يتوقف عن الصفير مترننا بهذه الموسيقى. وعلق بلا سبب، إنه لحن بسيط، لكن الحارس، الصديق، إذا كان بإمكاني تسميته، عبر الاستماع إلى اللحن كثيرًا مني بدأ أيضًا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حفظه. قال تيريزين، يصغرني بعشر سنوات، إذا كان لا يزال على قيد الحياة، فسوف يتذكر الأغنية أيضًا، أنا على يقين من ذلك. لكن كما ترون، ظل يقول، ملتفتًا الآن إلى حنّة، لأنه أدرك فيها الحماس عند الاستماع إلى اللحن، ثم رفع نبرة صوته وبدأ في التحدث ببطء أكثر: شخصان فقط يعرفان هذا اللحن كاملًا، شرحت الأمر برمته لحنّة، بعد ذلك، لخصت ما قاله لي تيريزين للتو بصوت واثق تقريبًا، تلك الملاحظات، هذه الموسيقى ـ وأشرت إلى الحائط ـ ليسوا في أي مكان آخر، فقط في رأس السيد تيريزين ورجل آخر، قلت لها اتدركين الأمر. أومأت حنّة برأسها وقالت نعم، نعم.

غادرنا المكان، أنا أسير في الخلف ببطء، وكلاهما، تيريزين وحنّة، في المقدمة. أراد العجوز تيريزين، بناءً على طلبها، أرادت أن تحفظها، محاولاً تعليمها الدندنة باللحن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

بعض الأسئلة حول الرفاهية

يقرأ ماريوش.

«بعض الأسئلة التي تطرح حول الرفاهية العاطفية:

هل تضحك في العادة؟

هل تشعر بالسعادة غالبًا؟ متى؟

هل انت من النوع المغرور؟

هل تعتبر نفسك وسيم مثل الآخرين؟

بعض الأسئلة التي تظهر حول العلاقات الشخصية:

هل لديك صديق مقرب؟

هل لديك عشيق؟ من؟

هل تفضل أن تكون في المنزل أم في مركز إعادة التأهيل؟

هل لديك اصدقاء خارج المركز؟

هل تذهب عادة إلى حفلات أعياد الميلاد؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الحادي عشر

كابوس آخر

1

ماريوش

كابوس آخر.

أرى نفس المجموعة من المراهقين، نفس عمر حنّة (لكنني لم أرها)، أربعة عشر وخمسة عشر عامًا، وجميعهم مصابون بالترايسومي 21، بينما يرموا كتب مختلفة اللغات في البئر. أذكر تمامًا بعض أغلفة تلك الكتب، بعض الأسماء الغريبة، وحتى بعض الحروف الهجائية التي لا يمكن اختراقها على الإطلاق. الفتيات (في لحظة معينة بدا لي أنهن جميعًا فتيات، لهن وجوه متشابه{ جدًا وتنورة زي مدرسي أخضر)، الفتيات يرمين كتبًا باللغات الفرنسية والإيطالية والبلغارية والروسية والإنجليزية والألمانية في البئر ـ وكل كتاب وصل إلى قاع البئر اصطدم بالماء الموحل محدثًا صوتًا؛ وأنا ـ من الغريب أنني كنت هناك، في منتصف المجموعة، أساعد ولكن دون أن أشارك، دون فعل أي شيء، أتقبل الأمر، ثم، متكئًا على البئر، هناك، ملأتني الدهشة، نعم هذه هي الكلمة، أرى كل واحد من الكتب، أولاً، يصطدم بقليل من القوة في السنتيمترات القليلة المتبقية من الماء، ثم يختفي علي الأقل جزئيًا، كتاب تلو الآخر، على الأقل جزئيًا، غارقًا في الوحل.

وأتذكر أنه بعد ذلك، لسبب لا يمكن تفسيره، شعرت بقفزة سردية حيث أنني اذ فجأة رأيتني محتجًا ضد شخص ما، ولكن في تلك اللحظة كان على أن أنسى كل ذلك، لأنني فجأة وجدتني، أسقط على حين غرة، لقد تعثرت، كيف؟ أعلم أنني سقطت على الأرض مما تسبب في حادث كبير وأنه عندما قمت، نظرت حولي وكنت في عالم يسكنه فقط أشخاص جميعهم مصاب بالترايسومي 21 الذين ينادونني، بتعاطف، يودون اللعب معي، الامساك بي، وبعد وقت طويل، عندما صادفت مرآة، أدركت أنني، عند سقوطي، اكتسبت سمات شخص يعاني من نفس الإعاقة؛ ثم حاولت التحدث ولاحظت أن الأمر من الصعوبة بمكان، كما لو أن السقوط سلبني القدرة على التحدث. أتذكر بعد امعان التفكير في الأمر، بموضوعية، أن شخصًا ما حبسني هناك، خلف ذلك الوجه المستدير، لكنني لم أكن مثلهم لأنني أستطيع التفكير في كل هذه الأشياء التي أفكر بها الآن، ولكن بعد ذلك جاء أحدهم أو تم دفعي، وأتذكر تمامًا أنه في تلك اللحظة أحببت شيئًا ما قد حدث وأنني ضحكت كثيرًا لحدوثه ـ لكن لا يمكنني تذكره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني عشر

سبعة قرون: عشرون

1

القرن العشرون

في الصباح الذي أحادنا فيه تيريزين العجوز عن مسارنا المخطط له إلى المحطة، حيث أخبرنا قصة السبعة قرون العشرين. قصها علينا عندما رافقنا أخيرًا، بدافع الرقة، إلى محطة السكة الحديد.

لماذا أفشى هذا السر لنا؟ كان من الواضح أنه أحبني ووثق بي، لكن لاحقًا عندما فكرت في الأمر، كان من الواضح لي أنه بدون حنّة هناك، لم يكن ليخبرني العجوز تيريزين بأي شيء. كان وجود حنّة هو الذي جعلني بالتأكيد أتغلب على العقبة الأخيرة، حنّة هي التي نقلت اليه الطمأنينة التي جعلتني، كشخص يقف بجانبها ببساطة، كاتم أسرار أمينًا: كوني بجانب حنّة، وثق الناس بي في بطريقة غير عادية.

ثم أخبرنا تيريزين القديم أنهم، اليهود، لا يثقون بالوثائق، الأوراق أو الصور، باختصار، في أي سجل محدد أو مادي أو ملموس. هل رأيت هذا الملف؟

ولأنهم لم يثقوا بما يطلق عليه لفظ المادة، بغض النظر عن مدى حداثة التقنية والأمان اللذين يتواجدان عند استخدامها، وعادت الوعود المتتالية بالخلود إلى الماضي، بطريقة معينة، وقرروا الاحتفاظ في ذاكرة الإنسان بكل ما يجب الدفاع عنه، والذي لا ينبغي أبدًا أن يصاب بأي تخريب ـ سواء من البشر أو من عناصر الطبيعية.

كان هناك، منتشرين في جميع أنحاء العالم، سبعة رجال، سبعة يهود، حفظوا عن ظهر قلب، تاريخ القرن العشرين بأكمله. في الواقع، قال تيريزين، في تواريخ محددة، في محاولة لتحييد أي تفسير أو حكم. أوضح تيريزين أن هؤلاء الرجال السبعة حفظوا نفس النص. إنهم رجال وظيفتهم الوحيدة ـ إلى جانب محاولة البقاء على قيد الحياة ـ هي عدم نسيان جزء واحد من المعلومات، ولا سطرًا واحدًا. كما هو واضح، فإن ما حفظوه كان له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتاريخنا الخاص، وهو تاريخ اليهود. خلال بعض سنوات القرن العشرين ـ قليلة الصلة بتاريخنا ـ لم يحفظوا سوى تاريخ واحد او آخر، بينما من سنوات أخرى قاموا بحفظ بيانات تحتاج ساعات لقولها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد حفظوا، كما يمكنك أن تتخيل، جميع البيانات، حتى أدق التفاصيل، لما حدث في معسكرات الاعتقال. السبعة قرون العشرين. لقد حفظوا مخطط المعسكرات ـ حيث يمكنهم رسمها في أي وقت؛ لقد حفظوا موقع الزنازين وقياساتها، وحفظوا عدد الوفيات حسب المدينة، بالسنة والشهر، وحفظوا أسماء العائلات التي اختفت خلال تلك السنوات، وحفظوا ما رواه بعض الناجين كتابة. وقد حفظوا تفاصيل قذرة أعذر وصفها لكم. لديهم القرن العشرين بأكمله في رؤوسهم. دعني أخبرك أن حفظ الأحداث التاريخية، على الرغم من كل شيء، ليست أعلى درجات الحفظ صعوبة. تتطلب الذاكرة الجيدة منطقًا داخليًا، يمكننا حفظ كمية كبيرة من البيانات إذا أنشأنا رابطًا بينها، إذا وضعناها في نوع من التسلسل يوجد فيه عنصر موحد بالنسبة للآخرين، وليس بمعزل عنهم. وأيضًا، إذا تم تحديد تاريخ واحد من «قروننا الثلاثين»، فسيبدأ من تاريخ محدد إلى الأمام أو الخلف، تسلسل ثابت يبدو غالبًا مشابهًا لشخص ما يقرأ جداول الضرب من الذاكرة. كما كنت أخبركم فإن للتاريخ منطق السبب والنتيجة ـ إذا عرفنا السبب، نمضي قدمًا ونكتشف النتيجة؛ إذا عرفنا التأثير، نعود ونكتشف السبب ـ هذا هو الأساس الذي تقوم عليه ذاكرتهم. كل شيء مرتبط. لا توجد الحقيقة أبداً وحدها. يحفظ كل «قرن عشرين» أيضًا المعلومات كهيكل مترابط، أو كرسم هندسي، حيث يحتل كل حدث مساحة مجاورة للمساحات الأخرى، وهكذا تواليه. قد يبدو غريباً، لكن «القرن العشرين» يُحفظ من خلال توزيع الأحداث على سطح ما. ولكل من «القرون العشرين» السبعة خريطته الذهنية. كل واحد يوجه نفسه، بداخل رأسه، بطريقة مختلفة ـ معرفة، اسمحوا لي أن أصفها بهذه الطريقة، تقع في ذاكرة المرء على اليسار، في ذاكرة قرن عشرين آخر يمكن أن تقع على اليمين. الآن، إذا طلبنا منهم إسماعنا ما لديهم، فسوف يتبعون جميعًا نفس ترتيب الحقائق والأحداث والبيانات. يبدو الأمر كما لو أن كل شخص كان، عقليًا، على مسار مختلف، لكنه رأى نفس الشيء تمامًا. نحن، كل اليهود الآخرين، غير مهتمين بمعرفة خريطة ذاكرة كل واحد من «القرن العشرين»، نحن مهتمون فقط بالجزء الخارجي من تلك الرحلة الداخلية.

قال العجوز تيريزين، لكن لا تعتقد أنه سهل أيضًا. لقد حاولت بذل بعض الجهد ـ للتسلية فقط، يكاد يمكن للمرء أن يقول ـ حفظت جزءًا من عام 1939. لكن جزءًا فقط، وجزءًا محددًا للغاية.

وبعد ذلك، وبصورة غريبة، بدأ، بنبرة محايدة تمامًا، في تلاوة كل كلمة في مكانها، كما لو كانت آلية:

- 1939. توقع ألمانيا اتفاقيات عدم اعتداء مع ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا وسلوفاكيا. ووقعت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدة اتفاقيات أخرى مع المجر وبلغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا. 12 فبراير. يقترح هتلر على القادة الانفصاليين السلوفاكيين إعلان استقلال تشيكوسلوفاكيا في 2 مارس. بداية حبرية بيوس الثاني عشر.(11) 14 مارس. سلوفاكيا تعلن الاستقلال. 15 مارس. النازيون يغزون براغ.

كان يتغير صوته فقط عند الإشارة إلى كل موعد، توقف قليلاً قبل أن يستأنف: ـ 23 أغسطس 1939. ميثاق ريبنتروب مولوتوف(12). معاهدة عدم اعتداء بين الاتحاد السوفياتي وألمانيا. بعد أسبوع، غزو بولندا، توقف دون سابق إنذار. أخبرني أن القرون السبعة انتشروا في جميع أنحاء العالم، كل واحد يعيش في مدينته الخاصة، في الخفاء. لم يعرف سوى عدد قليل من العائلات اليهودية من هم وأين يعيشون. ثم أكمل:

- 1 سبتمبر 1939. غزو بولندا. جيش فون رونتشتيت، إلى الجنوب، وإلى الشمال، جيش فون بوك. الاثنان يتحركان بسرعة. جيش ويليام وارسو، إلى الجنوب. التوجه النازي رقم 1. «تم تحديد يوم الهجوم على بولندا: 1 سبتمبر 1939. الوقت: 4:45 مساءً». دمرت القوات الجوية البولندية في 48 ساعة. بولندا: 387،000 كيلومتر مربع، هُزمت في عشرة أيام.

توقف الرجل العجوز مرة أخرى وأخبرني أن ما كان يقرأه هو جزء صغير جدًا من النص المقدس الجديد، تلك هي الكلمات التي استخدمها. كانت القرون السبعة ـ كما قال تريزين ـ الحراس الجدد للنص المقدس الجديد.

- ثم سأل فجأة ولم أكن أعرف بماذا أجيب: «هل أتابع؟ في أي شهر، ما التاريخ؟ ـ لم أجب. فقال: 18 يوليو. ثم أكمل:

- في عام 1939، كان يعيش في كراكوف 60 ألف يهودي. 18 يوليو. يقترح رئيس الولايات المتحدة، روزفلت، على الكونغرس تعديل القوانين التي تحدد شروط مشاركة البلاد في الحرب. 3 سبتمبر 1939. أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا. 18 سبتمبر. القوات الروسية والألمانية تتحد في بريست ليتوفسك. في الثاني والعشرين من سبتمبر عرض عسكري للجيشين في بريست ليتوفسك».

توقف.

هنا لديك جزء مقتطع للغاية من عام 1939. تخيل ما يعنيه حفظ أحداث قرن كامل ـ إنه ليس فقط 100 مرة من ذلك. هناك شهور، بل وحتى أيام، من الضروري الحفاظ على المعلومات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي قد تصل في المجموع إلى خمسة عشر ألف مرة مما قرأته لك للتو. تم اختيار كل قرن من القرون العشرين على وجه التحديد لكونه يتمتع بذاكرة أعلى بكثير من المتوسط. بدءا من فترة زمنية معينة، صبوا كل جهودهم في هذا الاتجاه. يكررونها بالترتيب كل يوم. بعض الأيام يراجعوا بضع سنوات، وأيام أخرى، وأخرى. وهكذا يراجعونها كما تتم مراجعة الكتاب المقدس. من الواضح أن هؤلاء الرجال السبعة مستثنون من أي طقوس دينية، فإن ما يفعلونه كثير بالفعل وهذا ما نريدهم أن يفعلوه. إذا حدث أي شيء لأي منهم، أي حالة وفاة، فسيتبقى ستة أشخاص، كل واحد في جزء مختلف من العالم، كل واحد له حياة خارجية على ما يبدو طبيعية.

يتحمل كل من «القرون العشرين» السبعة أيضًا مسؤولية اختيار سبعة رجال خلال حياته والذين سينقل إليهم جميع المعلومات شفوياً. كل واحد من تلك القرون السبع سينقلها إلى سبعة أخرى. وهكذا سيكون الحال دائمًا حتى النهاية. من ماذا، لا أعلم، ستكون هناك أخطاء في نقل المعلومات، وفيات مبكرة ستمنع ضرب الرقم في سبعة كل جيل، لكن رغم كل الأحداث الغير متوقعة وكل الإخفاقات، فنحن على يقين من أنه إذا اختفت جميع الصور الفوتوغرافية والسجلات، إذا تم إتلاف جميع الوثائق بسبب كارثة ما أو بإرادة شخص، نحن على يقين، كما قلت، أنه في مناطق مختلفة من العالم، في الساحات، في الإذاعة، في الأماكن الأكثر وضوحا، سيظهر يهود يروون نفس القصة، مستذكرين الحقائق، البيانات وبدون أخطاء، وكلها بنفس الخطاب، وبنفس الكلمات بالضبط، سواء كانوا يتحدثون في آسيا أو في أوروبا.

لا يتعلق الأمر بعدم الإيمان بطرق الأرشفة الحديثة؛ نحن متابعون لكل ما هو جديد، ولا نريد التخلف عن ركب الحداثة، إلى الوقت الذي لم تكن فيه كتابة وكان لدى الشركات شهود تعتمد شهادتهم على الذاكرة فقط؛ لا نريد العودة إلى تلك العصور ـ إنها ببساطة مسألة الإيمان بذاكرتنا أكثر من المواد المختلفة التي نخترعها لإبقائها خارج الجسم؛ إنها مسألة ثقة أكبر في العقل البشري، فقط أن أي شخص نقي أدرك بالفعل أنه على الرغم من كل شيء، فإنه من الأسهل إزالة الملفات المادية لمجموعة بشرية معينة عن بكرة أبيها.

قال لي مقاطعًا فجأة مستعملاً نبرة صوت ضعيفة: «لا علاقة لذلك بالأمر، لكن، ذلك المصور الذي جاء... أنا لا أعرفه، لكن ابتعد عنه وابعد الفتاة عنه. هذا الرجل لا يبشر خير.

وبعد ذلك، فجأة، طفرة أخرى في الحوار، سألني، سألني أنا وحدّة، على الرغم من أن حدّة لم تعر حديث تيريزين أي اهتمام قائلاً: أتريدان مقابلة واحدًا من «القرن العشرين»؟ ـ لم أعرف ماذا أجيب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال: «عندما تعودا إلى هنا، تعالا الى الفندق. سأقودكم إلى واحد منهم. حتى تستمعوا إليه».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

القرن العشرون في موسكو

أخبرني العجوز تيريزين في ذلك اليوم أن واحد من «القرن العشرين» كان قد فقد عقله ثم مضى يتجول في موسكو مكررًا، كما لو انه يقص، أحداث القرن. كان يرددها باستمرار بصوت عالٍ عندما يدخل الحانات ومحلات الحلاقة والأسواق، دون توقف يردد تسلسل من التواريخ والأحداث والقياسات والأرقام. قال «تيريزين العجوز» إنه، بطريقة ما، قيدنا جميعًا، أضاف قيد متزايد.

في موسكو، اعتبر ذلك «القرن العشرين» أضحوكة لجميع الأطفال. حيث يتم ربط حبل مع علبة في نهاية سرواله ويمشي إلى الأمام مع العلبة تدحرج على الأرض. ويغذي الآخرون رغبته في أن يُسمع واضعين في يده مكبر صوت سائلين إياه أن يقص عام 1931 على سبيل المثال. هناك ذاك «القرن العشرين» الذي فقد عقله، على الرصيف، مع مكبر صوت يتلو التواريخ، والأحداث، دون إبداء أي تعليق، دون ذكر أي ملاحظة، لا شيء، وكأنه تسجيل، هكذا تم تدريبه وتعليمه: ممنوع منعًا باتًا أي تعليق شخصي في وسط هذا الخطاب المستمر. يوجد بالفعل «قرن عشرين» آخر، بالقرب من موسكو، ظل هادئًا كما يتحتم عليه، ساكنًا، يقوم بمهمته الاحتياطية، وصيًا على نص ما، ولكن الذي فقد عقله الذي تحول إلى مادة للسخرية من الجميع، قريبًا، لسوء الحظ، توجب علينا القضاء عليه. إنه أمر سخيف تقريبًا، لكن كان علينا اسكاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث عشر

كلمات قصيرة

1

عين حمراء وكارت التعريف الشخصي

في الوقت الذي كنت فيه مع آجام، كان قد لاحظ أن لديّ الكارت الشخصي في محفظتي.

قال آجام: «لقد كنت أعمل لدى هذا الرجل».

لم ألحظ ذلك، لكنه حمل في يده الكارت الشخصي للمصور الحيواني جوزيف بيرمان.

قلت: «إنه شخص غير مريح».

اتفق آجام معي في الرأي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

العين الحمراء، الجرس

أخبرني آجام في ذلك اليوم، بينما كانت تقبع حنّة بعيدًا ومشتتةً بشيء ما.

كان التصوير بالنسبة للرجل مجرد جزء من عمله. جوزيف بيرمان، الذي يقدم نفسه على أنه مصور للحيوانات، هو أكثر من ذلك، انه لشخص مجنون.

أخبرت آجام أنني أدركت ذلك، لقد أضحى سهلاً ملاحظة الأمر.

تابع آجام بأن جوزيف بيرمان كان لديه عشرات وعشرات من الكلاب. سبب الأمر لديه هوسًا.

لقد أجرى تجارب تزاوج ـ حاول إنتاج أنواع جديدة بخصائص معينة. قال آجام: أرجل صغيرة وذيل كبير وسهل الانقياد، لكن مع فم مخيف، لا أعرف بالضبط، لا أفهم أي شيء عن الكلاب، لكنني علي علم بمحاولاته مزج الجينات، وهو ما قد يفعله العديدون، لكنه لا يفعلها مثل الآخرين.

أوضح آجام» لقد تم إبلاغي بالأمر فقط، لم أره بأم عيني، ولم أذهب هناك قبلًا، لكنني أعرف أشخاصًا ذهبوا ـ لقد أخبروني أن جوزيف بيرمان هذا لديه ما يسميه هو نفسه مصحة الكلاب النفسية.» هم كلاب مجنونة، فقدوا عقولهم، سبب حياتهم أنفسهم، وسبب الكلاب عامة، وأصبحوا حيوانات لا يمكن التنبؤ بأفعالها. في مذابح الحيوانات يعرفون جيدا جوزيف بيرمان. يشتري كلابًا تم التخلي عنها بغرض التخلص منها، كلابًا خطرة فعلت شيئًا فظيعًا أو عضت أصحابها. أو، إذا لم يكن الأمر كذلك، فهناك حالات، على حد قول آجام، لكلاب فقدت، عن طريق الصدفة، أو عن طريق حادثة ما، اسمحوا لي أن أصفها بهذه الطريقة، جزء من عقولهم، وأصحابها، بدافع الشفقة، ترسلهم للقتل. أو كلاب عجوزة جدًا تحتضر وتتألم ثم يتخلى عنها أصحابها. ثم في وقت لاحق وبشكل غير قانوني، مقابل المال، تلك المذابح ـ الجميع يعرف كيف هي ـ بدلاً من قتلهم، يقوموا بتسليمها إلى جوزيف بيرمان.

اعتذر آجام عن إخباري بذلك. سألني إذا كنت أريده أن يستمر في القَص، طلبت منه اخباري فقط حتى أدرك من هو جوزيف بيرمان.

كانت حنّة قد ابتعدت وانشغلت تمامًا حيث يمكننا التحدث بهدوء. طلبت من آجام المتابعة. لقد اعتدت بالفعل على حقيقة أن عينه اليسرى كانت تركز علي في بعض الأحيان، نصف مغلقة، ويبدو أن اللون الأحمر، الذي يمكنني رؤية آثاره، قد تم رسمه ووضعه هناك بشكل مصطنع. لكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا، هذا الدم كان هناك، ثابت دون حركة، كما لو كان في انتظار شيئًا ما.

يتم فصل الذكور عن الإناث، تابع آجام، الذكور في ناحية، وفي جهة أخرى الإناث فقط. والمجموعتان، إذن، لا ترى بعضهما البعض، يسمعون بعضهما البعض فقط. كما يقولون، ينتشر الصوت جيدًا للغاية بين جانب وآخر.

ينتهي أحد الممرات الي منطقة فسيحة، محل تزاوج الكلاب ـ عندما يختار جوزيف بيرمان ذكرًا وأنثى لذلك؛ على الرغم من أنه في بعض الأحيان يختار ذكرين وأنثى لينشب قتال. حسنًا، الكثير من التفاصيل لا تهم. نحن نتحدث عن رجل مجنون.

في القبو المركزي حيث يقوم جوزيف بيرمان بإطعام الكلاب. إنه يطعمهم بتواتر لا يمكن التنبؤ به تمامًا وهذا ما يدفع هذه الكلاب إلى الجنون أكثر بدون سبب تمر الأيام دون إطعامهم وبعد ذلك، في غضون ساعة، يعطهم وجبتين.

حسنًا، هناك أيضًا جرس ـ وهنا أدخل أنا. وضع ذلك المجنون جرسًا في منتصف القبو المركزي، وبينما يطعم الكلاب، يقم هو نفسه بضرب الجرس، مشيرًا إلى أن شيئًا ما سيحدث.

قال آجام: «هناك من يقول إنه أحيانًا، بعد قرع الجرس، وعندما تقترب الكلاب على أمل رؤية الطعام، يستخدم قضيبًا معدنيًا ويقوم بضربها، مما يفضي إلى مزيد من الارتباك. يقولون إن تلك الأحداث هي التي تفقد الكلاب عقولها تمامًا ـ حتى أولئك الذين ذهبوا إلى هناك بعقل سليم. لكن ربما يكون جزءًا مما يُروى هو بالفعل قصصًا مختلقة. لا أعلم.

يلتقط آلاف الصور للكلاب في تلك المواقف. هذا هو الأساس. هذا ما يصبو اليه. التقاط صورًا مذهلة.

قال آجام إذ فجأة: «لكنني أنا من قام بتصميم ذلك الجرس. لم أعرف الغرض منه، ولم يكن لدي أدنى فكرة. لابد وأن جوزيف بيرمان قد سمع عن قدرتي، بحيث يمكنني كتابة كلمات صغيرة جدًا لدرجة أنها غير مرئية، والتي تبدو للوهلة الأولى وكأنها رسومات بسيطة. لقد جاء إلى هنا. لقد كان هنا في الأعلى... «قال آجام، لكنه لم يكمل جملته فأحضر لي الجرس. لم يخفِ عني شيئًا عن أصل الجرس، لكنه لم يذكر شيئًا عن استخدامه في المستقبل. لقد قال فقط إنه لمنزله. لم أتعرف عليه قبلًا، ولم أسمع به من قبل، ولم يكن لدي سبب للشك. وكان طلبه مني هو ممارسة مهنتي. في ذلك الوقت، هذا ما فعلته. تلقيت المال مقابل الوظيفة وتم تسوية الأمر بالنسبة لي. علمتُ كل هذا لاحقًا فقط. بدأ اسم جوزيف بيرمان في الظهور في القصص التي يخبرني بها الأصدقاء. على أية حال. يبدو أنهم اتفقوا جميعًا من قبل على إخفاء هذا الاسم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عني ثم وافقوا بعد ذلك على عدم التوقف عن الحديث عنه. ربما ما حدث هو أنهم تحدثوا عنه بالفعل ولم ألحظ ذلك. لكن هذا الاسم ـ وأشار إلى بطاقة العمل التي كنت أحملها في يدي الآن ـ وثيق الصلة بي. إنه عمل نادم عليه، لكن في ذلك الوقت لم أستطع فعل أي شيء آخر.

أخبرني آجام «لا يوجد شيء غريب حول ما فعلته. جاء الجرس من كنيسة دمرت في غارات القصف في الحرب العالمية الثانية. حيث اشتراه جوزيف بيرمان، ويبدو أنه يمتلك الكثير من المال. كان الجرس أحد الأشياء القليلة التي بقيت سليمة من رفات الكنيسة. أخبرني جوزيف بيرمان بعد ذلك، لا أعرف ما إذا كان هذا صحيحًا أم لا، أن هناك شخصٌ ما، حتى بعد تدمير الكنيسة، حافظ على تقليد قرع الجرس في وقته المعتاد. وأن بعض الجماهير ما زالوا يقيمون احتفالهم في تلك المساحة نصف المهدمة.

كان على الجرس نقش واحد: عندما يدعوك يسوع، عليك بالتلبية. التفكير في هذا النقش يدفعني الآن للجنون. ما طلب مني هو حذف ذلك النقش، كان هذا عين ما فعلت؛ ليس من السهل كشط مثل هذا النقش، لكن لم يكن الأمر عسيراً جداً. ثم طلب مني أن أكتب بخط يدي المليمتري، بخط يدي غير المقروء بالعين المجردة، جملتان، اثنتان فقط، ستشكلان من الوهلة الأولى الشكل الذي أريده. لن أخبرك ما هي الجمل التي طلب مني كتابتها على الجرس. بدتا لي غريبتين، لكن لا يهم. كان الأمر عملًا. لقد فعلت ذلك عدة مرات: لدي العشرات والعشرات من الأعمال المنتشرة في جميع الأنحاء، والعديد منها في الأماكن العامة. نقوش على الجدران أو على قطع معينة تبدو كالرسوم، والتي بدت دائمًا كرسوم للجميع، لكنني فقط أنا والشخص الذي كلفني للقيام بالعمل يعرف أن هذه الرسومات تنطوي بالفعل على عبارات، تلك العبارات هي الهدف الرئيسي؛ عبارات رهيبة احيانا ـ لقد اعتدت الأمر. إذا ما أرادوا نقشًا عاديًا، على مرأى ومسمع من الجميع، فلن يأتو إلي، فهم يريدون دائمًا أن يكون مرئيًا وفي نفس الوقت يخفون كلمة أو عبارة وهذا هو السبب في بحثهم عني ـ أنا الشخص الوحيد القادر على تحقيق ما يصبون اليه.

ابتسم آجام قائلًا: في أوقات أخرى تُظهر العبارات أشياء معينة، انتقام تافه، سخيف: هناك رجل لديه صينية معدنية في غرفة المعيشة بالمنزل يشاركها مع زوجته مع رسم مكتوب فيه، بحجم غير مقروء، إعلان حبه للسيدة؛ في بعض الأحيان تكون أقوال حزينة ـ أب يريد أن تنسى زوجته وفاة ابنه... بناءً على الطلب، قمت برسم على طول جدار منزل بالكامل، رسم، بتكليف من امرأة دون علم زوجها. مخفيًا تكرار لمئات المرات، اسم الابن الذي مات ولا بد وأن يظل اسمه هناك، على الحائط، دون أن يعرف الأب، مئات المرات اسم الابن؛ أحد الكهنة، اعذر لي كشف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النقاب عن ذلك السر ـ قال آجام ثم ضحك، طلب مني أن أكتب إعلان حبه لصبي على الصليب الذي لا يزال يعرضه اليوم على المؤمنين لتقبيله. إذا ذهبت إلى هناك ـ لن أخبرك بأي كنيسة بالطبع ـ سترى فقط أثرًا صغيرًا على هذا الصليب يعرضه الكاهن للتقبيل؛ باختصار، نصف ذلك العالم مجانين، ولم يكن لدي أي شغف في هذا الصدد، جزء كبير مما أمتهن يحيا علي مثل هذا الهوس، الهوس بإخفاء سر وكشفه في نفس الوقت. قال آجام حسنًا، لكنني لن أخبرك بما كتبته على هذا الجرس. أرى في ذلك الأمر، حتى في علاقة مع رجل مجنون مثل جوزيف بيرمان، التواطؤ والسرية التي يجب على الطبيب الحفاظ عليها بشأن صحة مريضه. إذا كشفت عما طُلب مني كتابته، فسأخسر جميع العملاء. يقولون لي ماذا يريدون، ومن ثم يدفعون، ثم أكتب. يبقى بيننا. في هذه الحالة، عملية الجرس، لم أكن لأقوم بالمهمة إذا عرفت بالتفاصيل مسبقًا بالطبع. بدون شك لقد أدركت قصة جوزيف بيرمان لاحقًا، والآن لا يوجد ما يمكن فعله.

تمتم آجام ملتفتًا الي بكل حزم قائلًا: «وكل هذا لأخبرك أن الرجل» ـ ثم بإيماءة كما لو يشير إلى الاسم الموجود على البطاقة ـ «ليس قاتلاً، ولن يقتل أحداً، أنا متأكد، لكنه رجل مريض تمامًا. إذا كنت على درجة عالية من سوء الحظ بالفعل لمصادفته، فابتعد الآن. وفوق كل شيء، لا تدعه يتصادف مع الفتاة، فلن يحمل لها خيرًا. بالنسبة إلي، قال آجام، «لا أود مصادفته مرة ثانية».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الرابع عشر

هانسل وغريتل

1

اترك القرائن

يجلس كلا من ماريوش وحنّة جنبًا إلى جنب في العربة. في القطار، أحيانًا يرمقون حنّة بنظرات في محاولة لفك شفرة وجهها ـ ما مشكلتها؟ جهل البعض يسمح لهم بالتفكير فقط في أنها حالة مؤقتة ـ إعاقة ذهنية ستنتهي؛ ملامح من لا يفهم، تعبير قريبًا ما سيُمحى؛ لدينا جميعًا لحظات ننظر فيها بطريقة خرقاء وما هو مهم يحدث بالضبط وراء ظهورنا.

يتحكم ماريوش في انزعاجه. إنه يحاول أن يروي قصة لنفسه للتروية عنها، حتى لا ينغمس في تلك المسافة الهائلة التي أنشأتها نظرات الآخرين. مثل اللغز، حنّة بعيدة عن الرجال والنساء العاديين. هناك طفل مر بالفعل ذهابًا وإيابًا ثلاث مرات لينظر إلى حنّة؛ في كل مرة يمر يحملق فيها الصبي بعناية. انه للغز، سوف يفكر: هذا، هذا الوجه. لا توجد إيماءة استهزاء، لكنهم ينظرون إليها كما لو أنهم لا يستطيعون إيجاد حل لمعضلة ما؛ وهذا هو سبب شعورهم بالحاجة إلى النظر إليها مرة أخرى، وأخرى، حتى لو اختلاسًا.

يمكن أن يهينهم ماريوش واحدًا تلو الآخر، لكنه لن يفعل ذلك. يسيطر على نفسه. ينظر من خلال النافذة.

يقص على حنّة قصة هانسل وجريتل، الطفلين اللذين تركا وراءهما فتات الخبز حتى لا يضيعا في الغابة.

حنّة تحب القصة ثم يتبعها هو بقليل من الصمت ويعود ماريوش إلى تصفح البطاقات الخاصة بمراحل التعلم للأطفال ذوي الإعاقات الذهنية. من يمكن أن يترك مثل هذا الدفتر بين يدي حنّة؟ تبحث حنّة عن والدها. ربما يبحث شخص ما عنها.

يستخرج ماريوش أحد البطاقات. حيث يتم تسجيل التطور الجسدي والعقلي. إنها دورة مثل أي دورة أخرى، مثل دورة تعليم لغة لا يتقنها المرء. يقرأ ماريوش خطوات الهدف المراد تحقيقه: «خلع القميص».

الخطوة الأولى: «نزع القميص من فوق الرأس». الخطوة الثانية: «سحب الزراع عبر الكم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطوة مخصص لها درجتان».

الخطوة الثالثة: «سحب الذراع عبر الكم الآخر» (مخصص لها درجة واحدة تضاف الي سابقتيها). الخطوة الرابعة: «ارفع القميص حتى الصدر» (درجتان). إذا أكمل الشخص المعاق ذهنيًا هذه الخطوات الأربع، فسيقوم المدرس والمعلم بتدوين الدرجة النهائية 5 (2+1+2) على البطاقة. ثم بعد ذلك، حقيقة أو عدم وجود مساعدة ملموسة أو فقط مجرد تمثيل إيمائي يجعل التحسن أكثر أو أقل قيمة. من الواضح أن الهدف هو التعامل ذاتيًا.

ينهض ماريوش من مقعده. صار صوت عجلات القطار منذ فترة طويلة كلغة موازية، نوعًا من الصلاة الميكانيكية التي لا تتوقف، همهمة، اتهام قد يبدو في سياق آخر وكأنه نداء ديني وجماعي. النافذة بجوار مقاعدهم مفتوحة قليلاً، لكن ماريوش، بحركة، يفتحها أكثر. يفكر في القصة التي لم ينفك إخبارها لحنّة تواً، قصة الطفلين هانسل وجريتل.

في البداية، لم ينشأ لديه اي شعور بأن حنّة في حاجة لترك أدلة على مسارها. بينما هو منحنيًا من نافذة القطار، ألقى بالبطاقة الأولى، لم يفعل ذلك بسبب قرار اتخذ، بل مجبراً بسبب إشارة توجب القيام بذلك ولا تحتاج إلى معنى كبير. فكر على الفور، على الرغم من ذلك، أنه إذا ما قام برمي بطاقات التدريب المهني لحنّة على طول المسار، فإن مثل تلك الفعلة ستساعد في حالة محاولة شخص ما العثور عليها. في الوقت نفسه، انتاب ماريوش شعوراً بالإحباط حيث أنه لم يرغب أحد في العثور عليها لفترة طويلة؛ أي أنه تم التخلي عنها عمدا؛ وأنها وحدها التي تابعت البحث، ولم يبحث عنها أحد. لذلك، بدا له أن تلك الحركة ـ ألا وهي إلقاء بطاقة من دفتر حنّة وفقًا لوتيرة ثابتة إلى حد ما ـ كان شيئًا يتعلق بهما فقط ـ ماريوش وحنّة؛ لم تكن رسالة لأي شخص، لقد كانت مجرد مسألة تحديد الطريق وترك آثار أقدام خلفهم، مثل الطفلان هانسل وجريتل، ليس حتى يتمكن الآخرون من العثور عليهم ولكن حتى يتمكنوا هم أنفسهم من الخروج من هناك والعودة مرة أخرى. كان هناك شعور واضح يتنامى لدى ماريوش بالتيه، وزادت هذه الرحلة من هذا الشعور. كانت النظرات التي أحاطت بحنّة نظرات موجهة إليها حصريًا. وهو الذي كان على بعد سنتيمترات من حنّة، كان يحاول الهروب من نظرات التعاطف وعدم الفهم تلك في نفس الوقت. هو، ماريوش، كان على الهامش فقط ـ لم يتأثر. لم يشكل أي لغز للآخرين.

لقد شعر بالانهزام تمامًا لم يدري ما يتوجب عليه فعله ـ الآن هو جَد ضائع، مثل حنّة. في مقعد القطار هذا، كانت هناك، فتاة مصابة بالترايسومي 21، فقدت، قالت إنها كانت تبحث عن والدها، بجانبها، علي قدر اعتقاد ماريوش، كان رجلاً بالغًا، طبيعيًا، لكنه تائه هو أيضًا. وحتى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر من حنّة، لأن حنّة تبحث عن شيء ما على ما يبدو، شخص ما، بينما لم يكن هو كذلك. لم يكن لديه هدف خاص به. لقد رافقها فقط. لم يكن يبحث عن أحد، رافقها، تقريبًا بشكل غريزي، في رحلة بحثها. وصل إلى تلك المرحلة دون تفكير، حيث كان يصل دائمًا إلى الأماكن. لقد حاول المضي قدمًا، دون تردد، بسبب ذلك، نعم، كان دائمًا خائفًا: يرعبه التردد. الصدفة، ما حدث له، حدد طريقه: كما لو أن مصيره ليس مرتبطًا به ولكن بكل شخص صادفه. أينما يأخذوني، أذهب.

شعر ماريوش باصطدام الهواء البارد بوجهه، معطيًا ظهره إلى حنّة، التي ظلت جالسةً، بينما يرمي هو أحيانًا أحد البطاقات خارج القطار. فكر في انه في مكان ما بالخارج يتم رسم مسار مواز لمسار القطار، يتم رسمه بواسطة البطاقات الملقاة واحدة تلو الأخرى. نظر ماريوش إلى البطاقة التي يحملها في يده في تلك اللحظة: «الملاحظة: الحجم والشكل واللون وما إلى ذلك»؛ «1 ـ تمييز كائنات متطابقة من نفس الحجم، 2 ـ تمييز كائنات متطابقة في الشكل. قام بسحب البطاقة وإلقاءها خارجًا. ثم بطاقة أخرى: «تنفيذ مهام مستخدمًا أدوات معدنية، 1 ـ ربط وفك الصواميل والبراغي يدويًا، ألقاها هي الأخرى. ثم، لاحقًا، ألقى من نافذة القطار البطاقة التي تحمل عنوان «استغلال وقت الفراغ بشكل مناسب»؛ ثم بعد ذلك، «التحرك حول الأماكن المعروفة»، لاحقًا، عنوان آخر: «القيام بالأعمال المنزلية». كان الصندوق الذي يحتوي على بطاقات التعلم فارغًا، ولكن مع ذلك، فكر ماريوش مرة أخرى، بشكل سخيف، إذا ما أردنا العودة من نفس المسار، لدينا بالفعل إشارات كافية. «التفاعل مع الإشارات الإيمائية واللفظية. ـ بطاقة أخرى، ثم الأخيرة، التي لم يعيرها ماريوش أي اهتمام، بطاقات المتابعات، بطاقات المعلم، والتي تهدف إلى تسجيل تقدم الأطفال ذوي الإعاقات الذهنية. ألقى أول بطاقة من تلك البطاقات، بعد بضع دقائق، أخرى بعد بضع دقائق، أخرى ـ حاول، من البداية، الحفاظ على الفاصل الزمني ثابتًا إلى حد ما بين إلقاء كل رمز والذي يليه؛ وأخيرًا، أصبح الصندوق فارغًا ثم بعد بضع ثوانٍ، كان الصندوق نفسه هو الذي ألقى به ماريوش من النافذة، إنها نقطة النهاية، نهاية المسار، ها قد انتهى المسار، كما يعتقد ماريوش؛ يعتقد أنه إذا ما اتبع الشخص المعاق مسار الرحلة المحدد في البطاقات، فسيكون قد تقدم في النهاية بشكل ملحوظ. وإذا ما أردت أن أعود بنفسي، فكر، بالإضافة إلى ذلك، يجب أن أتبع البطاقات في الاتجاه المعاكس.

بعد بضع ثوانٍ مع استمرار وجود جزء من رأسه خارج القطار، يبتعد ماريوش، ويغلق النافذة قليلاً ثم يجلس بجوار حنّة، التي رأت كل شيء، ولم تنبس ببنت شفه، ولم تفهم تمامًا ما هذا. لكنها على يقين بكونها بجانب ذلك الرجل الذي يُدعى ماريوش والذي تعلم كونه صديقها وأنه يساعدها في العثور على والدها، وكان ذلك كافياً بالنسبة إليها. كانت تعلم، كانت متأكدة من أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا الرجل صديقًا لها، متيقنة من أنه أبداً لن يقتلع عينيها أو لسانها أبدًا، الأمر الذي طالما هابت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

حنّة وماريوش في القطار

من نافذة العربة رأينا دخانًا أسود يتصاعد من أحد المصانع. قالت حنّة بأنه مظهر جميل. ومن وجهة نظر معينة كان كذلك بالفعل: إذا ما اعتبرنا المصنع منتجًا للدخان فقط. ربما كان هكذا الأمر بالنسبة لحنّة.

حينئذ تذكرت إحدى تحف فيتريوس، ساعة مصنع من بدايات القرن العشرين، ساعة ذات توقيتين، ساعة مزدوجة، ذات ساعتين؛ لكن هاتين الساعتين المختلفتين اللتين تشير اليهما الساعة لا يرمزان إلى بلدين مختلفين. كانت ساعة تم استخدامها في مصانع النسيج في إنجلترا. في تلك الساعة المزدوجة، كانت إحدى الساعات عادية ـ تحسب الوقت كما تفعل الساعات الأخرى خارج المصنع. لقد كانت ساعة لم تبرح العالم، إذا أمكنك قول ذلك. من جانبها تعتمد الآلية الأخرى للساعة، مثال نموذجي للثورة الصناعية، وفقًا لسرعة عجلة المياه التي تنشط الآلات المختلفة. إذا كانت الآلات تعمل بشكل أبطأ، إذا لم يتمكن العمال من الحفاظ على إيقاع معين على العجلة المائية، فإن تلك الساعة الثانية ستعود إلى الوراء ـ وهذه الساعة ستحدد وقت العمل. يمكن أن يكون الفارق خمس دقائق أو ساعة. تبرز الساعة الثانية فوق ذلك، كما أخبرني فيتريوس في ذلك اليوم، توقيت لمجهود عضلي وجسدي، وليس وقت الأرض المحايد.

في الأساس، قال فيتريوس في تلك اللحظة، من العدل أن مرور الوقت يعتمد على جهودنا كحيوانات لها هدف معين. ومع ذلك، فإن النقطة المهمة هي أن الساعة الأخرى، تلك التي لم تعتمد على أي جهد بشري، كانت لا تزال تعمل.

تذكرت فيتريوس لأنه، بنفس الطريقة التي فتنت فيها حنّة بالدخان الأسود المتصاعد من مداخن المصانع، كانت هناك إمكانية أن أكون مفتونًا بما تسبب لنا في بعض الأحيان بالاشمئزاز. وتذكرت أيضًا فيتريوس لأنه كان لديه قطعة حنّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

ظهور جوزيف بيرمان

كنا حنّة وأنا في مقهى ثم دخل جوزيف بيرمان. لا يزال على بعد أمتار قليلة من طاولتنا، يحيينا برفع يده.

يقترب، يحمل الكاميرا حول رقبته. يقول لنا: صباح الخير. تستجيب حنّة على الفور بصباح الخير، سعيدة، لأنها تعرفت عليه، تتذكر ذلك الوجه، صديق، يجب أن تفكر فيه. كدت أن أستسلم لرغبة زجر حنّة، ولإهانتها لعدم فهمها أي شيء.

يسأل جوزيف بيرمان عما إذا كان بإمكانه الجلوس؛ لا أجيب ثم أقف. قال: أنا لا أفهم لماذا تتصرف هكذا، همهم جوزيف بيرمان، أردت فقط التقاط صورة لها، الصورة مهمة بالنسبة لي، وليست ذات أهمية بالنسبة إليها علي الإطلاق. ثم يضيف بنبرة شبه عدوانية، إذا لم تكن والدها، فأنا لا أجد مبررا لأفعالك تلك. ما زلت لم أنطق بشيء، اكتفيت فقط بالنظر اليه. الآن، نعم، أتحدث. سألته مشيراً برأسي، هل يمكننا الذهاب إلى هناك؟ لم أفكر في حنّة، لم أقل لها أي شيء، لقد رأيت للتو ورمًا وجب استئصاله ـ كانت لا تزال في مكانها، جالسة؛ ذهبت أنا وجوزيف بيرمان إلى حمام المقهى. دفعته للخلف، ثم مرة أخرى نحو باب آخر، لكمة، يرد هو بأخرى، ألكمه مرة أخرى، أخرى ثم أخرى، الكاميرا، ثم لكمة أخرى، هذا كل شيء، الآن، لا يوجد مجال لشيء آخر، لكمة، الكاميرا على الرأس، ولكمة، فأخرى، الحلق، ضربات متتالية، دون توقف، وكأن لا نهاية لهذا، ومرة أخرى، حتى النهاية، ثم أكثر، بل وأكثر.

أتنفس، ثم أعود، إثارة هائلة، نشوة تتحول على الفور إلى إنذار؛ حنّة ليست على الطاولة، أين هي؟ لم أسأل، لكنني أسير باحثًا، يقول لي النادل مبتسمًا: الفتاة عند مدخل المقهى؛ نراقبها، يتمتم النادل، لا تقلق. خرجت، بيدين مرتعدتين. قلت لها: يجب ألا تتحركين من مكانك، لقد أخفتني. بدأت في المشي بسرعة، وكذلك فعلت. ربما تريد حنّة أن تسألني شيئًا، لن تفهم ماذا حدث للرجل الآخر، ذلك الصديق، لماذا لم يتحدث معها بعد ذلك؟ نتابع المشي، أقول لنفسي؛ لنتابع، أقول مرة أخرى، الآن لها؛ لنتابع، لنتابع، لنتابع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الخامس عشر

الهروب

1

مخبأ

دخلوا منزل جروبى صديق ماريوش.

- «هل يمكننا البقاء هنا؟» سأل ماريوش بعد دقائق قليلة من وصوله، أما جروبى فهو مؤرخًا عجوزاً.

- سأل جروبي: «من هي الفتاة؟»

- تائهة، لم تستطع العثور على والدها. أحاول مساعدتها.

بدا ماريوش هادئًا وكان جروبى سعيدًا برؤيته.

- سأله جروبى بتكتم: «هل تدرك الأمور؟»

أجاب ماريوش أنها على دراية ببعض الأمور، ولكن ليس كلها.

- قال جروبى مازحًا «حسنًا، مرحبًا بها في عالم الأحياء، أنا لا أفهم كل شيء أيضًا»، تبسم ماريوش.

كتب مبعثرة في جميع أنحاء المنزل. مؤرخ عجوز وحيد الذي قال: «من يأتي إلى هنا لا يرتب المكان». نظر إليه ماريوش، كان لديهم شيء مشترك. أدركت حنة أن كل من الرجلين علي معرفة جيدة بالآخر. كانت على وشك أن تطلب منهم إخبارها بالسر أيضًا.

كتب تاريخ، صور ضخمة منتشرة في جميع أرجاء المنزل. دافع جروبى في مؤتمر عن أن التاريخ مثل كائن حي، يغير موقعه، يتسارع، يبطئ، عنصرًا ذا وزن ثابت ـ كتلة تتحرك أو تتسارع من نقطة إلى أخرى ـ ولكن مع مركز جاذبية غير ثابت. على أحد جدران المنزل، كما لو كان جدار محطة قطار، عليه علامات سوداء، حيث توجد أسماء مدن مختلفة، وتحت هذه الأسماء توجد تواريخ: موسكو (1917)، القدس (1948)، برلين (1961).

بالنسبة إلى جروبى، حددت تلك النقاط مراكز الثقل المتتالية للتاريخ. في تلك التواريخ وفي تلك المدن قبعت النقطة حيث يرتكز ثقل العالم. إذا أراد شخص ما أن يهدم، ويقلب التاريخ رأسًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على عقب، هناك حيث سيضطر إلى توجيه ضربته، في تلك النقطة المحددة، مركز الثقل. تمامًا كما هو الحال في مباراة الجودو: يُسقط الخصم فقط إذا تم توجيه الضربة في النقطة المحددة، وليس الي الخلف قليلاً ولا الي الأمام قليلًا. وهكذا، فقط عندما يكون الوزن الكامل للخصم (أو التاريخ) على القدم اليمنى يكون من المنطقي مهاجمة تلك القدم، لأن تلك الضربة، في تلك اللحظة، فقط في تلك اللحظة (في ذلك التاريخ، يقول جروبى)، سيؤثر على جسد الخصم بالكامل، مما يودي به الى انهيار تام. إذا لم يكن وزن الجسم على تلك القدم، فإن ضرب القدم سيظل دائما، وفقط، ضرب للقدم، هجوم بسيط، دون عواقب. لذلك، كان للأحداث ثِقل، وتركيز أحداث معينة في مدينة معينة، في بلد ما، في مكان ما، يجعل من تلك المساحة نقطة مركزية للعالم في تاريخ معين. بالطبع، فقط خلال تلك اللحظة الحاسمة وتركيز الوزن عند نقطة واحدة حينها أدرك الكثيرون أن هناك في تلك الحقبة يقبع مركز ثقل التاريخ. القلة الذين فهموا هذا في حينه هم الذين تمكنوا، لهذا السبب بالذات، من التلاعب بالتاريخ ـ التلاعب به حقًا: دفعه إلى اليمين أو اليسار أو إلى الخلف؛ دفعه تجاه أنفسهم أو رميه أرضًا، إذا ما لزم الأمر.

هل يعجبك الرسم؟ سأل جروبى حنّة، موضحًا لاحقًا أن هذه الكلمات كانت عبارة عن مدن، ثم قال، «يبدو وكأنه خط قطار...، أليس كذلك؟» أومأت حنّة برأسها: كانت مفتونة، ليس بالرسم نفسه، ذلك التسلسل من الخطوط والنقاط التي ميزت المدن ـ ولكن بتنفيذه: حقيقة أن شخصًا ما يخدش جدران منزلها بدا أمرًا غير عادي بالنسبة لها ـ لقد أحببت ذلك!

لم يغادروا منزل جروبى لبضعة أيام، وظل ماريوش يتساءل متى يطرق شخص ما الباب. على الرغم من عدم اتصال أحد. في نهاية اليوم الثاني علم جروبي حنّة هوايته. امتلك ساعات وساعات من التسجيلات لسباقات 100 متر. الآلاف من السباقات لمسافة 100 متر من الأحداث الكبرى إلى التصفيات الثانوية. عندما أنهى تجميع التسجيلات، فنط جروبى صور تلك السباقات المتقطعة الي مقاطع من عشر ثوان، حيث كان كل جزء من الألف من الثانية حاسمًا لدرجة أن فارقًا زمنيًا بسيطًا يفصل انتصارًا كبيرًا عن فشل بيّن. بين هذين الشعورين الماديين المتناقضين تمامًا، كما أشار إليهما جروبى ـ الإحباط والنشوة ـ كان الاختلاف الملموس في تلك الأجزاء من الألف من الثانية.

- «جميل، صحيح؟» ـ سأل جروبى.

استمتعت حنّة حقًا بسباقات الـ 100 متر، وبعد نصف ساعة لم تفقد تركيزها بعد. كانت السباقات ما زالت مستمرة، بينما يجلس ماريوش وجروبى سويًا يشاهدان السباقات. شاهد ماريوش السباق عن بعد، دون أدنى درجة من حماسة جروبى، الذي تألقت عيناه وانحنى إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمام مع كل إعادة للحظة النهاية، إعادة أظهرت، بحركة بطيئة، الأجساد التي وصلت إلى خط النهاية واحدا تلو الآخر. مع القليل من الاختلافات: رأس أحدهم، الأول، بعد ذلك مباشرة، الآخر، الذي بدا وكأنه يسقط، راميًا برأسه إلى الأمام، ثم الثالث، وأحيانًا الشعور باليأس، الحقن، بما في ذلك خفض الرأس إلى الأمام، كما لو أن هؤلاء الرجال في تلك اللحظة قبلوا، إلى أقصى درجة، أن تسير الرأس وحدها، وأن تنفصل عن الجسد إذا لزم الأمر. وبعد ذلك، على الشاشة، يظهر التصنيف الرابع، الخامس، وفي تلك اللحظة بالفعل ينشأ الإحساس بأن هناك من يتخلون عن شيء لم يدم سوى عشر ثوانٍ ـ هناك أولئك الذين يستسلمون، وهناك من يبدو أنهم تقريبًا توقفوا؛ هناك أولئك الذين يظهرون انخفاضًا في المعدل بالفعل بعد ست ثوانٍ؛ كما لو أن ما ظهر علي الشاشة هو رجل فاشل يحتضر وليس فشل شخص استغرق وقتًا أكثر من غيره في الجري لمسافة مائة متر.

أسند جروبى العجوز يده على يد ماريوش وكلاهما جالسان، يشاهدان السباقات؛ تنظر حنّة إلى يدي رجلين يكادان يستريحان على بعضهما، وترى فيهما شيئًا يطمئنها.

كلهم يتحدثون. تشارك حنّة أيضًا قليلاً في المحادثة. في الدقائق القليلة الماضية، أصبحت السباقات تشاهد من المنصة، مشهد في المنتصف، منظر طبيعي لا يمكن رؤيته إلا بزاوية العين والذي ينقل الي الإحساس بأن شيئًا ما، هناك، في مكان ما، في الخلف، لم يتوقف ـ وليس أكثر من ذلك.

حان وقت الخلود الى النوم. أخبر ماريوش جروبي أن حنّة معتادة على النوم معه في نفس الغرفة. الرجلان يودعان بعضهما البعض، يتمنيان نومًا هنيئًا. يبتسم العجوز جروبى في وجه حنّة ابتسامة لطيفة، متمنيًا لها ليلة سعيدة؛ يذهب ماريوش وحنّة إلى الغرفة؛ في غضون بضع دقائق، تنام حنّة، لكن ماريوش لا ينام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

العودة إلى برلين

في اليوم التالي، خرج جروبى في الصباح، بينما بقيت حنّة وماريوش في المنزل طوال اليوم. أبدت حنّة رغبتها في الخروج، لكن ماريوش أقنعها بالبقاء.

عند عودته، أخبر جروبي ماريوش أنه لم يسمع أي شيء، ليس هناك من أخبار.

بعد بضعة أيام، عاد جروبى فور مغادرته. حاملًا جريدة.

أخبر ماريوش أن الأخبار قد انتشرت.

ثم، بشيء من الكتمان، تحرك بعيدًا عن حنّة، أراها له.

قرروا أن أفضل شيء مغادرة ماريوش وحنّة المكان، بالنسبة إلى جروبى، كان ماريوش هو من اقترح الخروج.

مع جروبى، درس ماريوش الجدول الزمني للقطار. غادر كل من ماريوش وحنّة في نفس الليلة، سينامان في القطار. سيصلون خلال الليل. يتعلق الأمر بالهروب، لكن ماريوش لم يفكر مليًا في ذلك. في التو كان لابد من القيام بشيء ما.

مرة أخرى في المحطة، دفع ماريوش بحنّة إلى العربة. نظر إلى أحد الجوانب، ثم إلى الجانب الآخر، دخلا. سيخرجون من هناك. الهروب، فكر ماريوش، لكن فعلًا سخيفًا بعض الشيء. حنّة سعيدة وفي حركة متواصلة. على الرغم من احتجاجها على التنقل على الطريق مرة أخرى، إذ كانت قد سئمت القطارات. سألت عن والدها، أجاب ماريوش أنهم على وشك العثور عليه. وبدون أن يسألها ماريوش شيئًا، صاحت:

سوف يخلعون عيني. ثم انحنت بسعادة بالقرب من أذن ماريوش، وأسرت له شيئًا لكن ماريوش لم يفهم. طلب منها التكرار. انحنت بالقرب من أذن ماريوش مرة أخرى وقالت بضع كلمات أخرى بنبرة سرية. أصر ماريوش بأنه لم يفهم شيئًا؛ كانت متعبة. حاول ماريوش إقناعها مرة أخرى. هزت حنّة رأسها كأنها ستعيد الكرّه، ثم قالت لا، إنني بحاجة إلى الراحة الآن؛ ثم استندت على كتف ماريوش وفي غضون بضع دقائق، بمساعدة صوت القطار، خلدت في النوم، ورأسها بالفعل في حضن ماريوش.

بعد عدة ساعات نزلوا في محطة مألوفة للغاية. ثم وصلوا إلى منزل آجام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نادى ماريوش ففتح آجام. لم يصدر عن حنّة أية حركة كانت على درجة عالية من الاندهاش حتى ارتسم علي محياها عدم تعرفها على آجام.

بإيماءة لم يتوقعها ماريوش في هذه الظروف، في تلك الساعة، بطريقة لائقة دعاهم آجام بالدخول. سأل، إذا ماذا تريدان؟ لم يبد معرفته بما حدث، على الأقل لم يظهر أدنى شك تجاه ماريوش.

ربما لأن الوقت مبكرًا جدًا، ولأن آجام قد استيقظ مؤخرًا، لم يكن بالإمكان رؤية عينه الحمراء ـ لقد كانت مغلقة فعليًا وفقط فتحة صغيرة سمحت بإدراك أن هناك عينًا نشطة في الخلف.

أفصح ماريوش عن رغبته في معرفة مكان منزل جوزيف بيرمان، المنزل الذي يحوي الكلاب التي أخبره عنها آجام. قال لآجام، أنا بحاجة للذهاب إلى هناك. أجاب آجام بجدية أنه لا يوجد منزل بتلك المواصفات. لقد اختلقت القصة بالكامل. قال ذلك ضاحكا: أنا كاذب كامل. لا تصدق نصف ما أقول. لقد رويت لك تلك القصة فقط لإثارة إعجابك.

تأجج الغضب بداخل ماريوش، وكاد أن يضربه. أصر أن يشرح له آجام مكان بيت الكلب هذا ـ لقد أخبرتني بتفاصيل دقيقة. ضحك آجام: قلت لك إنه من اختراعي. أنت لا تعرفني ـ ظل يقول، أنا أحب تلك القصص، أنا من اختلقها؛ قال إنه لأمر ممتع مثل أي شخص آخر.

كل هذا يسليه بشكل واضح. ثم فجأة أشار إلى ركن من أركان الغرفة. ـ اذهب الى هناك؟ (كان يشير إلى المبرد الصغير الذي رآه ماريوش حاملًا إياه للمرة الاولى). لا يزال الحيوان موجودًا. هل تريد أن تأخذه معك؟ ما زلت لم أجد أي شخص يريد أخذه. إنه حيوان نادر، لا يمكنني التخلص منه. هل تريد أن تأخذه معك؟ كل اثنتي عشرة ساعة عليك تغيير الجليد، ليس لدي من يجتفظ به.

بعد أقل من نصف ساعة كانوا في فندق رافائيلا. اعتقد أنهم سيسمحون لهم بالبقاء هناك لبضعة أيام على الأقل. كما هو الحال دائمًا، كانت رافائيلا على طاولة الاستقبال. استقبلتهم عندما وصلوا ولكن باقتضاب. كان من السهل تخمين علمها بالفعل ما حدث. لم يذكر ماريوش الموضوع، فقط طلب منها البقاء في إحدى الغرف لبضعة أيام فقط. التزمت رافائيلا الصمت لفترة بدت لماريوش صمتًا طويلًا. ثم أخبرتهم أنه لا يمكنهم الإقامة إلا تلك الليلة. حيث أنه في وقت لاحق سيكون لديهم ضيوف آخرين وستكون الغرفة مشغولة. لم يرغب ماريوش في الإصرار. على الفور أعطى رافائيلا المال مقابل تلك الليلة. قال ماريوش مطمئنا إياها، سنغادر في الصباح الباكر. ثم سأل عن تيريزين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ردت رفائيلا: «لقد مات. وأضافت أنه كان كبيرا في السن. هل تريد البقاء في غرفته؟»، سألت رفائيلا بجفاف.

لم يطرح ماريوش أسئلة. قال لا، لم يرد البقاء في غرفة تيريزين. أفضل أخرى.

- «سيبدأ الضيوف بالوصول في الساعة الثامنة. غدا في السابعة تغادران».

وافق ماريوش.

ابتسمت رافائيلا لحنّة ومررت يدها على رأسها بلطف. فتبسمت حنّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

لا شيء

قبل السابعة صباحًا كانا قد غادرا بالفعل. كان لا يزال الظلام هابطًا. في طريق الخروج، تمنت رافائيلا لماريوش حظًا سعيدًا؛ وطلبت منه مبتسمة أن تعامل الفتاة معاملة حسنة؛ وقالت أيضا إن هناك الكثير من الاضطرابات في الشوارع، عدة مظاهرات، بعضها عنيف. قالت رافائيلا إن الأمر معقد. شيء ما يحدث هناك.

لم ير ماريوش أبدًا موبيوس، زوج رافائيلا، الذي ربما لا يريد مقابلته.

قبل الثامنة والنصف صباحًا، كانوا يتسلقون الطوابق الأربعة إلى محل فيتريوس للتحف. هدف حنّة وماريوش الحصول على أخبار، شيء محدد.

بمجرد وصولهم، فتح فيتريوس الباب. دخلا، ثم بعد ذلك تذكر ماريوش عدم اصابته بالدوار. ربما كان بسبب خوفه الشديد.

كان فيتريوس سعيدًا جدًا برؤيتهم. من الواضح أنه لا يعرف شيئًا. ان دون كيشوت لم يكن لديه أدنى طريقة للوصول للمعلومات. بات الأمر جليًا تمامًا، لقد كان يعيش في عالم آخر. ذلك هو النوع من الأخبار التي لم ينتابه الفضول بشأنه.

حاول ماريوش التحدث عن الموضوعات التي أحبها فيتريوس، كانت كثيرة؛ هذه المرة كان هو، فيتريوس استمع هذه المرة. تحدث عن صديقه المؤرخ وهوسه لمشاهدة مئات ومئات من سباقات الـ 100 متر على شاشة التلفزيون. تحدث كثيرًا، إذن، عن جروبى. قال إنه من المحتمل أن يكون الإثنان ـ فيتريوس وجروبى ـ أصدقاء. ضحك فيتريوس وأخبر ماريوش أنه يمكن أن يعطي صديقه عنوانه. قال مازحا إن لدي أشياء كثيرة هنا لأبيعها للمؤرخين ـ تلك المقابلة يمكن أن تكون صفقة جيدة بالنسبة لي. قال ماريوش نعم، سأفعل؛ أنه عندما يقابل جروبي مرة أخرى، سيعطيه عنوانه. قال ماريوش، على أي حالة، سأكتب عنوان صديقي هنا. أنا متأكد من أنكم ستكونون على وفاق. قال له فيتريوس نعم. فليكتب عنوان صديقه، لكنه لا يغادر المدينة. قال فيتريوس إن مجرد النزول إلى الشارع يصيبني بالاشمئزاز.

Telegram:@mbooks90

ثم سأل ماريوش عما إذا كان بإمكانهم البقاء هناك لبضع ساعات ذلك اليوم. لقد كان طلبًا سخيفًا، لكن فيتريوس لم يطرح أي أسئلة ـ مستشعراً بخطورة معينة في الوقت الحالي، وفي غضون بضع دقائق، جهز ورشة العمل، كما لو كان سيسمح لهم بالبقاء هناك لفترة من الوقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومع ذلك، فقد لفتت انتباه ماريوش إلى بعض الأشياء وتوخي الحذر مع حركات حنة. كانت حنة تدرك أنها لا تستطيع الحركة، وأنها أشياء مهمة. ابتسم فيتريوس لحنة. وسأله بتعاطف إذا كان عطشانًا، إذا كان يريد أن يشرب الماء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

الحشد، النهاية

ومع ذلك، كان من الواضح أنهم لا يستطيعون البقاء هنا. بعد وقت قصير، بدأت تظهر على فيتريوس علامات عدم الراحة من تواجد هذين الاثنين. استأنس العزلة، يوم واحد لديه صحبه، دون انقطاع، كان كافياً لازعاجهلازعاجه. لم تكن حنّة قادرة على البقاء بسبب النقص الشديد في المساحة الخالية. ستبدأ في تحطيم الأشياء.

لذلك بدأ ماريوش في الاستعداد للوداع. وعرض عليهم فيتريوس، بدافع الرقة، بقاءهم هناك لفترة أطول قليلاً، وأن الجو العام الخارجي ينبئ بثقل وضبابية، على حد قوله. وأنه، من جانبه، سيواصل تسجيل أرقامه. لقد قطعت شوطًا طويلاً، هكذا قال، مشيرًا إلى مسلسل الأرقام. ثم، بحركة سريعة، وضع قطعة حنّة الصغيرة في جيب سترة ماريوش.

قال فيتريوس «لا شيء. لا توجد روابط».

افترقوا. نزل ماريوش خارج الدرج، شعر بجسده يرتجف مع كل خطوة أكثر هذه المرة، بدون تحكم. طلب ماريوش من حنّة التوقف لبضع ثوان، لقد كان بحاجة إلى التعافي. جلست حنّة على عتبة أحد المباني في انتظار ماريوش الذي، سرعان ما تعافى ـ ثم عاودا سيرهم مرة أخرى. الآن، ومع ذلك، لم يكن لدى ماريوش أية فكرة إلى أين يمكن أن يذهب؛ لأول مرة، لم يعرف ماذا يفعل ولم يعرف إلا أنهما يجب عليهما الاستمرار في المشي، دون توقف، ومحاولة عدم الالتفات يمنة ويسرة، وألا يلوح على ملامحه أي إشارة على كونه هارب، وأحيانًا يجبر حنّة على المشي بشكل أسرع، ولكن بالإضافة إلى السرعة، كانا بحاجة إلى عدم التوقف وسرعة اتخاذ القرارت عند كل منعطف، دون تردد. حتى لو لم يكن يعرف مكانه، فلن يتردد لثانية ـ لم يكن عليه أن يبدو تائهًا، والمضي قدمًا.

سارا كثيرًا لدرجة أنهم انتهى بهم الأمر إلى عدم معرفة مكانهم. نظر ماريوش حوله ولم يتعرف حتى على الشوارع والمباني ولا وجوه الناس، بدت غريبة بالنسبة اليه، بسبب عدوى غير عقلانية واضحة، وكأنهم لا ينتمون إلى تلك المدينة. مازح ماريوش نفسه قائلًا ـ لقد تهنا تمامًا، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن مكان وجوده في المدينة، إذا كان في الشمال أو الجنوب أو الشرق... لا شيء. فقط ملصق على الحائط جذب انتباهه، عائلة ستام اللطيفة، عائلة ستام اللطيفة!، فكر في كل شيء، المهم انه كان تائهًا وفي تلك اللحظات فكر في المجاهر الرائعة التي يمتلكها آجام وكيف هذا الاخير عرضها عليه في أول زيارة قام بها له، خريطة المدينة، تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المدينة، مرسومة في مساحة لا تزيد عن مليمتر مربع، وكيف شعر بالتيه أولاً، ثم بتركيز هائل عندما رأى ـ داخل مربع صغير، ينظر اليه عبر مجهر قوي للغاية، مخطط عام للمدينة بأكملها ـ حيث هناك منزل آجام، ثم بعد ذلك، من تلك البقعة وبدون التوقف عن النظر من خلال المجهر، متابعًا، بعين واحدة، ارشادات آجام: استدر الآن يسارًا، تقدم قليلاً، ترى تقاطعًا، أليس كذلك؟ استمر قليلاً وفقط عند التقاطع الآخر... هل تراه؟ نعم، كان ماريوش يجيب بنعم دون رفع عينيه عن العدسة، محركًا عينه بهذه الطريقة، على طول خريطة المدينة؛ يمكن أن ترى بعين واحدة وفي لحظة واحدة، المدينة بأكملها؛ وكيف هو الآن، ضائعًا في الفضاء، يتذكر تلك اللحظة، لكم كانت مفيدة بالنسبة اليه الآن تلك النظرة من الأعلى، في تلك اللحظة عندما وجد نفسه تائهًا تمامًا، متجهًا بالفعل في شارع قديم جدًا لدرجة أن المباني يتضح أنها مهجورة وعلى شفا الانهيار. تكررت التحذيرات، بعضها في الشارع، على مستوى الرؤية، والبعض الآخر على المباني نفسها، في الطوابق العليا، *احذر من خطر الانهيار*، شعر ماريوش أن هناك تهديدًا هائلاً قادمًا من هناك، من تلك المباني التي تخلى عنها الناس؛ كان هذا هو المكان الذي لم ينسه أبدًا، حيث جاء الخطر والشر، وما الذي يمكن أن يحدث إليهما، ولهذا السبب، بدون وعي، أمسك ماريوش غريزيًا بيد حنّة ولا يعرف ما إذا كان قد نطق بتلك الجملة أو فيها فكر فقط للتو: ـ علينا الخروج من هنا بسرعة. لكن الحقيقة هي أن الاثنين أسرعا، ماريوش يسحب حنّة، التي تشتكي من شدة قبضته؛ لكنهما غادرا هذا الشارع بسرعة، وبعد مفترق طرق، استدارا يسارًا، مما نمّى لدى ماريوش شعور بالارتياح، فجأة، أصبحا، دون أن يعرفوا كيف، في شارع مشاة شهير، أحد أكبر الشوارع بالمدينة. ومع ذلك، سرعان ما تبدد الشعور بالارتياح لديه، وحل محله شعور آخر: أن شخصًا ما يتحدث كثيرًا من وراء ظهره، في الخلف. أدار ماريوش رأسه بتكتم إلى الوراء ورفض تصديق ما تراه عيناه. في نهاية الشارع، تواجد مئات الأشخاص، الآلاف من الناس يتقدمون، يرددون الشعارات، يحطمون النوافذ، يطلقون الهتافات، ويمشون بخطى ثابتة، ببطء ولكن بثبات، يتحركون بدقة في اتجاه ماريوش وحنّة.

نظر ماريوش حوله، مرتعدًا أدرك أن الشارع الواسع أمامه كان فارغًا، ولم يكن أحد مرئيًا، المتاجر مغلقة، بعضها به قضبان قوية على مدى البصر، ولم يكن هناك من أحد. نظر ماريوش مرة أخرى إلى تلك الكتلة الرهيبة من الناس الذين يتقدمون نحوهم. في الأمتار التالية لم يكن هناك تقاطع والعودة كانت شيئًا بدا، في تلك اللحظة، غير مناسب تمامًا ـ سيكون حركة ظاهرية، تغييرًا مفاجئًا في اتجاه سيرهما؛ لقد شعر أن هذا الخيار سيشكل خطرًا جسيما، لكنه لم يكن لديه حتى الوقت للتفكير في القرار الصحيح لأن الكتلة الضخمة كانت قد لحقتهم بالفعل، وبوتيرة أسرع بكثير، كانت تمر بجوارهما، هكذا شعر ماريوش ـ شخص او اثنان يتقدمان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسيرة ـ وأدرك ماريوش بوضوح أنهم ينحرفوا من حولهما، وأنهم غير مكترثين: غير عابئين بحنة وماريوش. وفي اللحظات الأولى، انتابه مرة أخرى شعور بالارتياح، كما لو أنه اعتقد من قبل بأن تلك الكتلة من الناس يمكن أن تكون قادمة اليه هو على وجه التحديد، ولكن مرة أخرى لم يكن هناك وقت للتفكير، لأن حشد المتظاهرين وصل بالفعل الآن، وعمليا التهمهم. كانت الهتافات تصم الآذان، لم يفهم ماريوش شيئا وشدد من قبضته على يد حنة. لقد اقترب منها، حاول تكوين حد أدنى من الدفاع ضد الضربات اللاإرادية التي بدأت تحدث، المطبات التي كادت تجعلها تسقط ولكن لم يتم توجيهها إليها، كانت فقط نتيجة للكتلة المضغوطة بشكل متزايد من الأشخاص والسرعة التي تقدموا بها جميعًا. بدون استهلاك أي وقت من التفكير، حاول الاثنان بعد ذلك مواكبة وتيرة تقدم هؤلاء الأشخاص، فقد كان هذا هو أكثر الأماكن أمانا بالنسبة اليهما، والمتابعة، والمشي بنفس الوتيرة، كما لو هما هناك منذ البداية، في خضم ذلك الحدث. بعض العجائز من كبار السن، قلة؛ تقريبا السواد الأعظم شبان وشابات. بعضهم يلقى بالحجارة على نوافذ المحلات التي ظهرت في الامام، بعض المتهورين يركلون الأبواب، مرة، اثنتان، ثلاثة، ويتابعوا. بقي آخرون في الخلف، على الجانب، ولم يتحركوا للأمام حتى دمروا بالكامل نافذة أو باب متجر؛ من الخلف، تمكن ماريوش من الرؤية بزاوية عينه، أشياء مشتعلة بالفعل، وصارت صرخات الإثارة أكثر رعبًا الآن بعد أن أصبحا في الداخل، في المنتصف. كانا بالفعل في ذلك الجزء من الشارع حيث عادت مفترق الطرق للظهور وكان كل مفترق طرق مثل مدخل آخر: انضمت مجموعات من الناس إلى الكتلة الهائلة من الجوانب؛ مجموعات صغيرة أخرى جاءت من شوارع ضيقة وانضمت أيضًا إلى جماهير الناس، وأيدي ماريوش وحنة، اللتين كانتا دائمًا منغلقتان جداً ـ كلاهما مختلفان، كانا خائفين، بدأت الأيدي، ثم ببطء، تميل الي الاسترخاء، وتقليل القوة والتوتر بينهما، كما لو أن تقدمهما في وسط ذلك الحشد، بدءا يشعران بالاندماج فيه، يقل خوفهما، ومع كل خطوة يضبطان وتيرة المسيرة أكثر فأكثر، مثل مواكبة إيقاع تلك الرقصة العنيفة، ولكن على الرغم من كل شيء منظمة، تتقدم ككتلة واحدة نحو مكان واحد، بهدف واضح، دون تردد. ثم لحظات قليلة، شعر ماريوش بصحة غير عادية، شعر بخفة هائلة، بلادة فردية جعلته مبتهجًا لدرجة أنه أراد الصراخ بفرح وشيئًا فشيئًا، بدأ تركيزه ينصب على ساقيه، على خطواته، على الضجيج الوحشي الذي تحدثه آلاف وآلاف من الأرجل والأحذية، وهو ضجيج أصبح ببطء أهم شيء بالنسبة له، لم يعد يسمع الصراخ بعد الآن، ولم يستطع سماع الصراخ لأنهم كانوا في المنتصف، الآن شعر بأنهما بالضبط في منتصف تلك الكتلة الهائلة، وسط ضوضاء هائلة جعلته أقرب الى الاختفاء، كما لو أن جسده لم يعد موجودًا، ولكن البقايا فقط هي ما يمكن رؤيته من الخارج، بدأ جسده ورجليه وخطواته في الانتعاش الآن،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع كل خطوة عادت قوته، وكاد يشعر بالأسى بسبب عدم قدرته على شكر كل هؤلاء، واحدًا تلو الآخر، ثم ركز على ساقيه، شاعرًا بحزمهم، الطريقة التي يمكنهم بها مواكبة إيقاع حركة الأشخاص الذين تقدموا؛ وبدون أن يشعر بذلك تقريبًا، بدأت يده في الاسترخاء، ولم يعد يشعر تقريبًا بيد الشخص الذي طالما شعر بأنه بجواره، على الرغم من أنه لم يتراءى له ذلك حتى تخيلًا؛ وشعر ماريوش أن يده أصبحت فجأة حرة، ولا تمسك بشيء، ولا يتعلق بها أحد؛ وكان هناك وحده، بكلتا يديه حرتين، وكلتا يديه فارغتين، وسط حشد هائل من الناس الذين استمروا في التقدم والصراخ بشيء، شيء لم يفهمه، ماذا تعني تلك الكلمات؟، لكنه شعر بانها هي، شعر أنها لا غنى عنها، ونعم، كان هذا ما يجب أن يُهتف به، وهناك، في المنتصف، شعر لأول مرة أنه يمكنه فعل ما يريد بيديه، رفع إحداهما أو كليهما، والصراخ، كما يفعل الكثيرون بجانبه، كان بإمكانه فعل كل شيء، من تلك اللحظة فصاعدًا، ولكن الآن ما كان عليه فعله هو الصراخ، وعدم التوقف، عدم التوقف تحت أي ظرف، عدم التوقف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مراجع الرواية

«هل هو سعيد؟ ـ مقاربة لدراسة سعادة الشباب المصابين بالتثلث الصبغي 21» تأليف بيدرو موراتا وليجيا غونزالبيس Pedro Morato & Lígia Gonçalves، Revista de Educação Especial e Reabilitação (2001)؛ مجلة التربية الخاصة والتأهيل (2001). «A Educação de Pessoas com Deficiência Mental» {تعليم الأشخاص ذوي الإعاقات الذهنية}، مجموعة من المؤلفين، مؤسسة كالوست غولبنكيان (1996).

شكر وتقدير لـ بيدرو موراتو، ادارة التأهيل النفسي والحركي، مستشفى فورسايث التذكاري على قراءته الكتاب بعناية.

تحية خاصة لمجموعة الرقص مع الاختلاف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

REPÚBLICA PORTUGUESA

CULTURA

DIREÇÃO-GERAL DO LIVRO, DOS ARQUIVOS E DAS BIBLIOTECAS

UMA MENINA ESTÁ PERDIDA NO SEU SÉCULO

À PROCURA DO PAI| Gonçalo M. Tavares

COM O APOIO DA DGLAB/Cultura – PORTUGAL

صدرت الترجمة بمساعدة من وزارة الثقافة البرتغالية

---

(1) مُتلازمة داون هي اضطراب صبغيّ يُسببه كروموسوم 21 إضافي، ويؤدي إلى إعاقة ذهنية وتشوهات بدنية.

(2) هو مجمع معسكرات اعتقال أدارته ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية في الجزء المحتل لدولة بولندا.

(3) هو معسكر اعتقال أسسته ألمانيا في دولة بولندا شمال شرق وارسو، خلال الحرب العالمية الثانية

(4) أول معسكرات الاعتقالات الألمانية تأسس عام 1933 وتم السيطرة عليه من قبل القوات الامريكية 1945 .

(5) معسكر اعتقال ماوتهاوزن هو معسكر اعتقال بني عام 1940م في النمسا خلال الحرب العالمية الثانية.

(6) أسماء مراكز اعتقال المانية خلال الحرب العالمية الثانية.

(7) معسكر اعتقال ألماني علي الحدود مع لوكسمبورغ.

(8) معسكر اعتقال ألماني تم إنشاؤه عام 1933 وحتي نهاية الحرب العالمية الثانية.

(9) هيرمان غورينغ هو مؤسس الجهاز السري الجستابو، قائد القوات الجوية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner